

الفصل الثاني

الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم.

تمهيد

بعث الله تعالى رسله صلوات الله عليهم جميعاً إلى خلقه بدعوة واحدة، أصول الاعتقاد فيها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وشرع لهم شرائع أساسها الطهارة والعفاف في الأخلاق، والاستقامة والقصد في السلوك، والعدل والنصفة في المعاملات.

فكان من نصيب الله تعالى هؤلاء الرسل الكرام أن أيدهم - في مواجهة تكذيب الكفار - بالمعجزات، وهي الآيات الخوارق التي تفهم المعاندين، وتثبت المؤمنين. ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن تكون معجزات الأنبياء السابقين في أممهم حسية يراها المشاهدون، ويعاينها الحاضرون كناقة صالح، وبرد النار وسلامها على إبراهيم، وعصا موسى، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى صلوات الله عليهم جميعاً، وأكثر ما كانت المعجزات الحسية في بني إسرائيل. ثم ختم الله تعالى رسله إلى خلقه بمحمد ﷺ، وكما أيد من قبله بتلك المعجزات الحسية أيده كذلك بكثير منها، كتلك التي كان يطلبها المشركون تعنتاً، فيجابون إلى بعضها ولا يؤمنون. ولا يجابون إلى أكثرها، رحمة من الله تعالى أن ينزل بهم العذاب عند تكذيبهم بها، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْوِيفًا﴾ (سورة الإسراء ١٧: ٥٩).

^١ السيوطي. الإتيان في علوم القرآن. ط ١ ج ٢. ص ٢٢٨-٢٢٩.

نلاحظ أن المعجزة تُختار من بيئة القوم الذين يُرسل الرسول إليهم ومن نوع مشهور في عصرهم مما يتلاءم مع مستواهم الفكري ورفقيهم الحضاري لتكون الحجة أقوى. والحكمة الإلهية في اختيار المعجزة من جنس ما اشتهر بين القوم هي أن الإنسان إذا أوتي من قبل ما يعتبره مفخرته ومجال إجادته واعتزازه تكون الحجة عليه أقوى والمعجزة أكثر فعلاً وأثراً.

فنزل القرآن على النبي الخاتم ﷺ، وهو معجزته الكبرى المستمرة إلى يوم القيامة تقيم الحجة على الأجيال اللاحقة بصدق الرسول ﷺ وربانية رسالته. ولا تؤدي المعجزة المادية هذا الدور وهذه المهمة، فكان الاختيار الرباني أن تكون المعجزة وحيًا. وقد روى الشيخان من حديث الليث بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: (ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)^١.

وقال ابن حجر في شرح هذا الحديث في فتح الباري ما نصه: "إن معجزات الأنبياء السابقين انتهت بانتهاء عصورهم، فلم يعلوها إلا من حضرها، أما معجزة القرآن فهي باقية إلى يوم الدين فهو في كل عصر خارق للعادة في أسلوبه وبلاغته ومنازل وجوه إعجازه ومنها إخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر شيء مما أُعبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه، وكذلك فالمعجزات الماضية كانت حية تشاهد بالأبصار، وأما القرآن فمعجزة عقلية تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر، لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض

^١ رواه البخاري في فضائل القرآن، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. ١٤٠٠هـ. الجامع الصحيح البخاري. تحقيق: محب الدين الخطيب. القاهرة: المكتبة السلفية. باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، رقم الحديث: ٤٩٨١، صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٣٧٨.

مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول^١. وذكر النووي في شرح صحيح مسلم أن الحديث يحتمل معنيين: الأول: إن كل نبي أعطي من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله من الأنبياء، فأمن به البشر. وأما معجزتي العظيمة الظاهرة فهي القرآن الذي لم يعط أحد مثله، فلهذا قال: أنا أكثرهم تابعاً. الثاني: معناه أن الذي أوتيته لا يتطرق إليه تخيل بسحر وشبهة، بخلاف معجزة غيري فإنه قد يخيل الساحر بشيء مما يقارب صورتها، كما خيلت السحرة في صورة عصا موسى، والخيال قد يروج على بعض العوام، والفرق بين المعجزة والسحر والتخيل يحتاج إلى فكر ونظر. وقد يخطئ الناظر فيعتقدهما سواء^٢.

ومعرفة الإعجاز القرآني، وإدراك عظمة الكلام الرباني من أهم المعارف وأشرفها، ومن أجل العلوم وأعظمها. فإظهار الإعجاز في القرآن الكريم وبيان العظمة في مبانيه ومعانيه من الأمور الواجبات والمهام المطلوبة في كل زمان، وفي هذا الزمان خاصة؛ لتثبيت الإيمان في قلوب المؤمنين بهذا الدين، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم. فنهج اليوم في حاجة إلى إظهار هذا الإعجاز للمسلمين وبيانهم حتى يخضعوا لأحكامه، ويرغبوا فيه كما رغب أسلافهم. وإضافة إلى ذلك، إظهار إعجاز القرآن وبيان أنه قطعاً كلام الله سبب عظيم من أسباب هداية الكافرين وجذبهم لهذا الدين. والأمثلة على هذا - في عالمنا اليوم - كثيرة؛ خاصة في مجالات الإعجاز العلمي والنفسي والتشريعي والتأثيري.

^١ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. ١٤١٠هـ. فتح الباري شرح صحيح البخاري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار الكتب العلمية. ط ١. ج ١٤. ص ١٨٦.

^٢ النووي، الإمام محي الدين بن يحيى بن شرف. شرح النووي المسمى: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. مقدمة: الشيخ خليل مأمون شيخنا. كتاب الإيمان. باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته. بيروت: دار المعرفة. ط ١٠. ج ٢. ص ٣٦٤.

المبحث الأول : تعريف الإعجاز وأوجهه في القرآن: معناها وتحديدها.

الكلام على التعريف سيكون منصباً على الإعجاز لغة واصطلاحاً. قد اختلفت أنظار العلماء في تحديد تعريف جامع ومانع للإعجاز، فكان من المهم التوسع في الكلام عليهما.

المطلب الأول: تعريف إعجاز القرآن لغة واصطلاحاً

مصطلح (إعجاز القرآن) - كما يبدو من صياغته - مركب إضافي، طرفاه كلمتا: (إعجاز) و(القرآن) وللعرف المراد بهذا المركب يلزم تحديد معنى طرفه الأول وهو كلمة (الإعجاز) ثم معرفة المراد بالمصطلح كله عند إضافة هذه الكلمة إلى (القرآن).

أولاً: تعريف الإعجاز لغة

جاء في معجم مقاييس اللغة:

"العين والجيم والزاء أصلان متحيضان يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء".
فالأول: عَجَزَ عن الشيء يَعِجُ عَجْزاً فهو عاجز أي ضعيف. ويقولون: أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه^١. فالإعجاز - على هذا - هو القُوت والسبق^٢ بالنظر إلى حال

^١ ابن فارس، الشيخ أحمد بن فارس بن زكريا. ١٣٩٢هـ. معجم مقاييس اللغة تحقيق: الأستاذ عبد السلام محمد هارون.

القاهرة: اتحاد الكتاب العربي. ط٢. ج٤. ص١٨٩. مادة: ع ج ز.
^٢ القوت: القوات. فاتني كذا أي سبقني، وفته أنا. وقال أعرابي: الحمد لله الذي لا يفات ولا يلات. وفاتني الأمر فواتا وفواتا: ذهب عني. وفاته الشيء، وأفاته إياه غيره؛ وقول أبي ذؤيب: إذا أرن عليها طاردا نزقت والقوت إن فات هادي الصدر والكند يقول: إن فاتته، لم تفته إلا بقدر صدرها ومنكبها. السبق: القُدْمة في الجري وفي كل شيء؛ تقول: لهُ في كل أمر سبقة وسابقة وسبق. انظر: ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي. د.ت. لسان العرب. القاهرة: دار المعارف. ج٣٣. ص٢٨١٧. مادة: ع ج ز.

المُعْجِز، وهو الضعف بالنظر إلى حال العاجز. وفي حديث عمر رضي الله عنه: "لا تلتثوا بدار معجزة"^١ أي لا تقيموا ببلدة تعجزون فيها عن الاكتساب والتعيش.^٢

وقد يُجمع بين أصلي معني الإعجاز فيقال: "العجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر أي مؤخره". وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، قال الله تعالى: ﴿أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْفَرَابِ﴾ (سورة المائدة ٥: ٣١). وأعجزت فلاناً وعجزته، وعاجزته، أي جعلته عاجزاً^٣. قال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنْكُرُ غَيْرُ مُعْجِزِ اللَّهِ﴾ (سورة التوبة ٩: ٢). وقال تعالى أيضاً: ﴿وَمَا أَنْشَأْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (سورة العنكبوت ٢٩: ٢٢).

وقال صاحب تاج العروس: "أعجزه: صيره عاجزاً، أي من إدراكه والحق به"^٤. والتعجيز: النسبة إلى العَجَز. الإعجاز: مصدر أعجز، وفعله رباعي أعجز، تقول: أعجز، يعجز، إعجازاً، واسم الفاعل معجز. بمعنى

^١ ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري. ١٩٧٩ م. النهاية في غريب الحديث والأثر. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي. بيروت: المكتبة العلمية. ج ٣. ص ٨٦.

^٢ ابن منظور، لسان العرب. ج ٣٣. ص ٢٨١٧. مادة ع ج ز. انظر: الجوهري. الصحاح. ط ٤. ج ٣. ص ٨٨٤. الزنجشيري، أبو القاسم محمود بن عمر. ١٩٨٥ م. أساس البلاغة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ج ٢. ص ٦٧.

^٣ الأصفهاني. معجم مفردات ألفاظ القرآن. ط ١. ص ٢٤٢.

^٤ الزبيدي، الشيخ محمد مرتضى. د. تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق: مجموعة من الأساتذة. مطبعة حكومة الكويت. ج ١. ص ٣٧٤٩. مادة: ع ج ز.

^٥ ابن منظور. لسان العرب. ج ٣٣. ص ٢٨١٧. مادة: ع ج ز.

سبق وفاز. تقول أعجزَ الرجل خصمه، بمعنى: فاته وسبقه وفاز عليه وغلبه، بحيث لم يستطع الخصم العاجز إدراكه والحق به^١.

فإذا أمعنا النظر في هذه المعاني، على اختلاف المعاجم والقواميس، نجد أن المعنى اللغوي يدور على الضعف، والانقطاع، وعدم القدرة على تحصيل الشيء.

ثانياً: تعريف الإعجاز اصطلاحاً

والإعجاز في الكلام هو "أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق"^٣. فيعجز عن الإتيان بمثل كل من يحلوه، فيصير هذا الكلام معجزاً للناس كلهم. ويذكر الباقلائي^٤ أن وجوه الإعجاز كما قال به أصحابه - يعني الأشاعرة - تظهر من جهات ثلاث: -

١- أخبار الغيب التي أخبر عنها القرآن قبل أن تحدث.

٢- الأخبار عن الأمم الماضية مع أمية الرسول الله ﷺ.

٣- نظم البديع.

^١ الخالدي، صلاح عبد الفتاح. ٢٠٠٤م. إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدرة الرباني. الأردن: دار عمار. ط ٢. ص ١٥.

^٢ كان الصدر الأول من السلف يستخدمون الألفاظ القرآنية الدالة على معنى الإعجاز والمعجزة، وقد جاءت هذه الألفاظ في القرآن الكريم متنوعة في أسمائها قريبة في معانيها الدالة على معنى الإعجاز والمعجزة، وهذه الألفاظ هي: آية: (المؤمنون ٢٣: ٥٠، طه ٢٠: ٢٢)، وسلطان (إبراهيم ١٤: ١٠-١١)، وبرهان (النساء ٤: ١٧٤)، وبصرة (القرآن. الأنعام ٦: ١٠٤، الإسراء ١٧: ٥٩)، وبينة (القرآن. الأعراف ٧: ٧٣). وهي كلها دالة على معنى المعجزة.

^٣ الجرجاني، الشيخ علي بن محمد بن علي. ١٤٠٥هـ. التعريفات. تحقيق: الأستاذ إبراهيم الأبياري. بيروت: دار الكتاب العربي. ط ١. ص ٤٧.

^٤ الباقلائي، ابو بكر محمد بن الطيب. ١٩٦٣م. إعجاز القرآن. تحقيق: سيد أحمد صقر. مصر: دار المعارف. ص ١٣.

والباقلا في كان أكثر تفصيلاً في الوجه الثالث، بل إن كتابه يكاد يكون مبنياً على هذا الوجه، وهو كون القرآن بديع النظم عجيب التأليف، متناه في البلاغة، ولقد ذكر معاني عشرة يشرح بها هذا الوجه. وقد ذكر الزركشي أقوال العلماء عن معرفة الإعجاز كما يلي: "وإعجاز القرآن ذكر من وجهين: أحدهما إعجاز متعلق بنفسه. والثاني بصرف الناس عن معارضته. ولا خلاف بين العقلاء أن كتاب الله معجز واختلفوا في إعجازه فقل إن التحدي وقع بالكلام القلم الذي هو صفة الذات وإن العرب كلفت في ذلك مالا تطبيق وفيه وقع عجزها والجمهور على أنه إنما وقع بالدال على القلم وهو الألفاظ^١.

ثالثاً: مفهوم إعجاز القرآن

وقد تحدثنا فيما سبق عن معنى الإعجاز لغة واصطلاحاً. أما الإعجاز، فبإضافته إلى القرآن، ومنهما يكون مصطلح: (إعجاز القرآن). وهو مركب إضافي. معناه بحسب اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به، والتقدير: إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به^٢.

^١ الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. ١٩٨٤م. البرهان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: مكتبة دار التراث. ط ٣. ج ٢. ص ٩٠-٩٣.

^٢ الزرقاني. مناهل العرفان في علوم القرآن. ج ٢. ص ٢٢٧.

فهذا التعريف عام لإعجاز القرآن لا يتعلق بإثبات وجه من وجوه الإعجاز ولا نفيه. وهناك بعض التعاريف التي قَصُرَت الإعجاز على وجه أو أكثر من وجوهه، فمنها: قال القاضي عبد الجبار رحمه الله: إن القرآن الكريم معجز في جزالة لفظه وحسن معناه لفصاحته^١.

وقال الخطابي رحمه الله: "القرآن صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، متضمناً أصح المعاني، والتناسب في جميع ما تضمنه القرآن ظاهراً وباطناً بحيث خلا عن التعارض والتناقض، وقوة تأثيره في النفوس بحيث جعلت كل من يسمعه يتأثر به"^٢.

وقال أبو البقاء رحمه الله: "إعجاز القرآن: ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته على ما هو الرأي الصحيح لا الإخبار عن المغيبات، ولا عدم التناقض والاختلاف، ولا الأسلوب الخافض، ولا صرف العقول عن المعارضة..."^٣.

وقال السكاكي رحمه الله في (المفتاح): "أن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحاة، وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت، ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطرة السليمة إلا باتقان علمي المعاني والبيان والتميز فيهما"^٤.

^١ القاضي عبد الجبار، أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي. ١٩٦٠ م. المعنى في أبواب التوحيد والعدل. القاهرة: مطبعة دار الكتب. ط ١. ج ١٦. ص ٣١٨.

^٢ الخطابي، أحمد بن محمد. د.ت. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تحقيق: عبد الله الصديق. القاهرة: طبعه دار المعارف. ط ٣. ص ٢٤.

^٣ أبو البقاء. الكليات. ص ١٤٩.

^٤ السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد. د.ت. مفتاح العلوم. د.م: د.ن. ص ١٨١.

وذكر الزركشي: "يكون إعجاز القرآن من وجهين، الأول: إعجاز متعلق بنفسه، والثاني: بصرف الناس على معارضته"^١.

وذكر مالك بن نبي في (الظاهرة القرآنية): فالإعجاز هو، بالنسبة إلى شخص الرسول: الحجة التي يقدمها لخصومه ليعجزهم بها. وهو بالنسبة إلى الدين: وسيلة من وسائل تبليغه. وهذان المعنيان للإعجاز يصفيان على مفهومه صفات معينة: الأول: أن الإعجاز بوصفه الحجة لا بد أن يكون في مستوى إدراك الجميع، وإلا فأت فائدته، إذ لا قيمة منطقية لحجة تكون فوق إدراك الخصم. الثاني: ومن حيث كونه وسيلة لتبليغ الدين، أن يكون فوق طاقة الجميع. الثالث: ومن حيث الزمن، أن يكون تأثيره بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إليه. فهذا هو المقياس العام الذي نراه ينطبق على معنى الإعجاز في كل الظروف المحتملة بالنسبة إلى الأديان المنزلة^٢.

وذكر د. صلاح الخالدي: "هو عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توفر ملكيتهم البيانية وقيام الداعي على ذلك وهو استمرار تحديهم وتقرير عجزهم عن ذلك"^٣.

أما الدكتور فضل حسن عباس فقد قال: "عجز الناس عن أن يأتوا بمثله. فكلمة إعجاز مصدر وإضافتها إلى القرآن من إضافة المصدر لفاعله فكان التقدير أعجز القرآن الناس أن يأتوا بمثله. ومعنى ذلك أن هذا القرآن دلّ بما فيه من بيان على أنه من عند الله"^١.

^١ الزركشي. البرهان في علوم القرآن. ج ٢. ص ٩٢.

^٢ مالك بن نبي. ١٩٨٧م. الظاهرة القرآنية. تقديم: محمد عبد الله دراز. دمشق: دار الفكر. ط ٤. ص ٦٤-٦٥.

^٣ الخالدي. إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني. ص ٢٣.

ولذلك تدرج القرآن في التحدي من مثل القرآن إلى عشر سور إلى سورة واحدة كما قال تعالى:

﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (سورة الاسراء ١٧ : ٨٨).

ثم تحداهم بعشر سور وقطع عذرهم بقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة هود ١١ : ١٣). فردهم من العشر إلى سورة واحدة من مثله، مبالغة في التعجيز لهم، فقال: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة البقرة ٢ : ٢٣) أي يشهدون لكم أنها في نظمه وبلاغته وجزالته، فعجزوا فقال تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ (سورة البقرة ٢ : ٢٤) مبالغة في التعجيز وإفهاماً لهم ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (سورة البقرة ٢ : ٢٤) وهذه مبالغة في الوعيد، مع أن اللغة لغتهم، والكلام كلامهم.

وفي هذه الآيات إشارة واضحة على أن هذا القرآن من عند الله وهم حاول الكفار وأصحاب الدعاوى الباطلة مضاهاة القرآن لكنهم عجزوا، ومن أمثلة ذلك: حكى النقاش: "أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن فقال: نعم أعمل مثل بعضه فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف

^١ عباس، فضل حسن. ٢٠٠١م. إعجاز القرآن الكريم. الأردن: دار الفرقان. د. ط. ص ٢٨.

^٢ الزركشي. البرهان في علوم القرآن. ج ٢. ص ١١٠.

فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث وحلل تحليلاً عاماً ثم استثنى بعد استثناء ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا^١ والمقصود بالآية التي اطلع عليها هذا الفيلسوف قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ؕ أُحِلَّتْ لَكُم بَيْعَةُ الْأَنْعَمِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ؕ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۖ﴾ (سورة المائدة ٥: ١)

كذلك مسيلمة الكذاب، حاول مراراً أن يأتي بمثل هذا القرآن لكنه عجز. قال ابن كثير رحمه الله: "ذكروا ابن عمرو بن العاص وقد على مسيلمة الكذاب، وذلك بعد ما بُعث رسول الله ﷺ وقبل أي يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ فقال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ (سورة العصر ١٠٣: ١-٣) ففكر مسيلمة هنية ثم قال: وقد أنزل علي مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: (يا وبر يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حفر نقر) ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب^٢. فهذا الرجل في حال شركه لا يخفي عليه كلام الرحمن من الهذيان.

^١ الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. د. ت. فتح القدير. د. م. د. ن. د. ط. ج. ٢. ص ٢٥٨.

^٢ ابن كثير، الخانظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي. ١٤١٨ هـ. تفسير القرآن العظيم. تقدم: عبد القادر الأرناؤوط، دمشق: مكتبة دار الفحاء. ج ١٤. ص ٤٥١.

المطلب الثاني: أوجه الإعجاز في القرآن الكريم: معناها وتحديدها وعلاقتها بالإعجاز التأثري.

أولاً: أقوال العلماء في أوجه الإعجاز

تباينت أقوال العلماء في تحديد وجوه الإعجاز في القرآن الكريم. فمنهم من أوصلها إلى عشرة وجوه، ومنهم من أوصلها إلى نيف وثلاثين وجهاً، ومنهم من جعل وجوه الإعجاز وجهاً واحداً. ومن يتبع هذه الوجوه التي ذكرها العلماء قديماً وحديثاً يجد كثيراً منها تتداخل أو تتشابه ويمكنه بعد الاستقراء والتحقق أن يجمع بين كثير منها.

قال السيوطي رحمه الله: "اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواب، وما بلغها في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره...".^١

ومن الوجوه التي ذكروها: الإعجاز بالنظم، والإعجاز بالأسلوب، والإعجاز بعدم التناقض، وأخبار الماضي، وأخبار المستقبل، والإعجاز التاريخي، والإعجاز الأخلاقي، والإعجاز النفسي، والإعجاز الروحي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز العلمي، والإعجاز العددي، والإعجاز التربوي، والإعجاز الطبي، والإعجاز الفلكي، والإعجاز الجغرافي إلى غير ذلك مما ذكره.

ولاحظت الباحثة من خلال استقراء بعض الكتب في الإعجاز على أن الكتابة في الإعجاز كانت بعد أن قال النظام بفكرة الصرفة وكانت ردة فعل على مقالته حصيلة جهود متعاونة متعددة، أسهم فيها علماء اللغة والنحو والبيان والكلام والأصول، كل هؤلاء وغيرهم بذلوا

^١ السيوطي. الإتقان في علوم القرآن. ج ٢. ص ١٢١-١٢٢.

مشكورين، وكانت لهم لبنات في بناء صرح الإعجاز الشامخ. فالخليل بن أحمد، وسيبويه، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبو زكريا يحيى الفراء، والشافعي، والأصمعي، والجاحظ وابن المعتز، وابن قتيبة، وكثير غيرهم. كان لهم دور لا ينسى.

ومن العلماء القدماء الذين تحدثوا عن وجوه الإعجاز في القرآن، الخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم المعروف بأبي سليمان الخطابي، في كتابه (بيان إعجاز القرآن). وحدد الخطابي وجوه الإعجاز بأربعة: إبطال القول بالصرفة، الإخبار بالغيب، الإعجاز بالنظم^١ ثم قال بوجه آخر، ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ في آحادهم، وهو صنيعة بالقلوب، وتأثيره في النفوس. ومنهم الباقلاني، وهو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالقاضي أبي بكر الباقلاني، من كبار علماء الكلام، ألف كتابه (إعجاز القرآن). وقد ذكر في أحد فصوله جملة من وجوه الإعجاز متمثلة في الإخبار عن الغيوب المستقبلية، وإخبار عن الأمم الماضية مع أمية الرسول ﷺ، وبديع نظم القرآن، وعجيب تأليفه، وما فيه من الشريعة والأحكام التي يتعذر على البشر مثلها^٢.

ومن القرن السادس، القاضي عياض بن موسى اليحصبي في كتابه (الشفاء بتعريف حقوق المصطفى) لإعجاز القرآن، بدأ بقوله: "اعلم وفقنا الله وإياك أن كتاب الله منطوق على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه: أولها حسن تأليفه والتتام كلمه،

^١ الخطابي. بيان إعجاز القرآن. ص ٩٢-٩٣.

^٢ الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم. د.ت. إعجاز القرآن. د.م: عالم الكتب. ص ٤٨-

وفصاحته، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة.^١ وفي القرن السابع كتب أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي فصلاً في مقدمة تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) ذكر فيه نكتاً في إعجاز القرآن، ووجوه ذلك الإعجاز، عدد فيها تلك الوجوه، وجعلها في عشرة^٢.

أما العلماء المعاصرون الذين تحدثوا عن وجوه إعجاز القرآن فمنهم مصطفى صادق الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية). يقول الرافعي: "إن جهات الإعجاز هي صفات من نظم القرآن وطريقة تركيبه، فإعجاز القرآن عنده في بلاغة النظم، وقد قسم الرافعي النظم إلى: الحروف وأصواتها، الكلمات وحروفها، والجمل وكلماتها"^٣.

إذن، نستطيع أن نقول بأن كل ما ذكره العلماء من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه ولا يناقض ذلك بل كل قوم تبهوا لما تبهوا له. ولذلك قال السيد محمد رشيد رضا في تقديمه لكتاب (إعجاز القرآن) لمصطفى صادق الرافعي: "فالكلام في وجوه إعجاز القرآن واجب شرعاً، وهو من فروض الكفاية، وقد تكلم فيه المفسرون، وبلغاء الأدباء والمتأفقون"^٤.

^١ القاضي عياض. الشفا بتعريف حقوق المصطفى. ج ١. ص ٢٥٨.

^٢ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. ١٩٩٣م. الجامع لأحكام القرآن. بيروت: دار الكتب العلمية. ج ١. ص ٥٢-٥٣. النظم البديع، والأسلوب المخالف لجميع الأساليب العرب، والجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، والتصريح في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي، والإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله، من أمي ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه يمينه، والإخبار عن المغيبات في المستقبل إلى آخر ما عدده من ذلك.

^٣ الرافعي. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. ص ١٣٩.

^٤ المرجع نفسه، الرافعي. ص ٢٠.

وتلاحظ الباحثة بعد الاستقراء والبحث أن كثيراً من هذه الأوجه يندرج مع غيره، فالإعجاز الأخلاقي والتربوي يمكن أن يندرج في الإعجاز التشريعي، كذلك الإعجاز العددي، والإعجاز الطبي، والإعجاز الفلكي، والإعجاز الجغرافي يندرج في الإعجاز العلمي. وكما هو الحال في الإعجاز بالنظم، والإعجاز بالأسلوب، والإعجاز بعدم التناقض يندرج في الإعجاز البياني. وكذلك أخبار الماضي، وأخبار المستقبل والإعجاز التاريخي نستطيع أن نجعله كله في باب واحد وهو الإعجاز الغيبي - الماضي، الحاضر والمستقبل - وهكذا.

ثانياً: علاقة الإعجاز التأثري بأوجه الإعجاز القرآني الأخرى

وفي هذا الصدد سوف تربط الباحثة علاقة الإعجاز التأثري بأوجه الإعجاز القرآني التي حددناها سابقاً، ومن ذلك ما يلي:

١. الإعجاز البياني وعلاقته بالإعجاز التأثري

ترى الباحثة أن كل الإعجاز البياني في حد ذاته هو إعجاز تأثري، وهو عبارة بجر لا نهاية له. فصاحب البلاغة مثلاً يتأثر بنظم القرآن وأسلوبه العذب الفريد. فحلم إذا أن القرآن معجز بنظم أسلوبه وجرس ألفاظه، وأصوات كلماته. وهذا التأثير ينال روعة وبهاء وجمالاً في الوليد بن المغيرة لما سمع القرآن من النبي ﷺ. والمعروف أن الوليد من أفصح العرب بل هو أفصحهم. وقد سجلت التاريخ قولته الشهيرة: "وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ حِلَاوَةً"، وَإِنْ أَصْلُهُ لَعَذِيقٌ وَإِنْ فَرْعُهُ لِحَنَاءٌ".^١ وبهذا يفهم أن العلاقة بين الإعجاز البياني والتأثري علاقة قوية، بل هي علاقة مشاركة وتأثير.

^١ ابن هشام. ١٩٩٤م. السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق: مصطفى السقا وآخرون. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ط ١. ج ١. ص ٣٠٦-٣٠٧.

٢. الإعجاز العلمي وعلاقته بالإعجاز التأثري

من الواضح أن هذا الإعجاز القرآني المتمثل في الإعجاز العلمي والحقائق العلمية يجعل الشعور أرهف حساً والقلب أكثر تأثراً لأنه مجال يخوض صاحبه به في آفاق الكون فيبعث على التأثر والتأثير. فيجول في أعماق النفس البشرية وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (سورة الذاريات ٥١ : ٢١). فالنظر في الأنفس وكيفية تركيب الجهاز العضوي للإنسان يؤدي إلى التأثر حقاً، لا سيما إذا ما علم أن القرآن قد أشار إلى ذلك. فالعلاقة إذاً بين الإعجاز العلمي والتأثري علاقة وطيدة وليس أدل على ذلك من العلماء الذين يسلمون من مثل بروفيسر موريس بوكاي وغيره.

٣. الإعجاز النفي وعلاقته بالإعجاز التأثري

إن الحديث القرآني عن أمور ستقع في المستقبل القريب أو البعيد أمر معجز لا شك فيه، وهو من الإعجاز الذي اختص به القرآن الكريم فمجرد أن يقرأ الإنسان قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِينَ مُخْلَقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (سورة الفتح ٤٨ : ٢٧). وقد تحقق ذلك ودخله النبي ﷺ وأصحابه في عمرة القضاء. ثم يدرك الإنسان المسلم أن هذا قد تحقق، فإنه لن يجد طريقاً إلا ويتأثر قلبه ويخشع فؤاده ساعة تلاوته أو استماعه لهذه الآيات التي عبرت عن هذا الأمر بلفظ "لتدخلن". فالعلاقة بين الإعجاز التأثري والتأثري علاقة مساعدة ومساهمة. ومن ثم يكون الإعجاز التأثري مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بأوجه الإعجاز الأخرى.

^١ ابن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج ١٣. ص ١٢٧.

٤. الإعجاز التشريعي وعلاقته بالإعجاز التأثري

وقد تجلت علاقة الإعجاز التأثري بالإعجاز التشريعي لأنه يحاكي فطرة الإنسان. فبدأ القرآن الكريم في آياته الأولى في تربية الصحابة ﷺ خاصة ومشركي قريش عامة بتركيزه على توحيد الله والإيمان به، وبتدار الجزاء بعد الموت. ثم انتقل إلى العبادات بأن فرض عليهم الصلاة في العام العاشر من البعثة. ثم فرض عليهم الزكاة والصوم بالمدينة المنورة في العام الثاني من الهجرة. ثم الحج في العام السادس. وكان يزرعهم خلال هذه الفترة عن الكبائر وينهاهم عن الصغائر بالرفق واللين. وتدرج بهم في تحريم الخمر الذي كان مُستأصلاً في نفوسهم في مراحل. وقد حقق بهذا الأسلوب نجاحاً فريداً في نوعه عجز عن مثله كبار المربين في العالم وفي أكبر دول ما يُسمى بالمتقدمة. فتخلص المسلمون من شرب الخمر دونما أية صعوبة^١.

ووصف الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب ﷺ حال العرب قبل مجيء الإسلام عندما وقف أمام التجاشي مُثلاً للمسلمين في هجرتهم الثانية إلى الحبشة قائلاً: "أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، وأبني الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. فُكُنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا"^٢.

وهذا ما فهمته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين قالت: "إنما نزل أول ما نزل من القرآن سور من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام. ولونزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنا لقالوا: لا ندع الزنا

^١ الزرقاني، محمّد عبد العظيم. ٢٠٠١م. مناهل العرفان في علوم القرآن. تحقيق: أحمد بن علي. القاهرة: دار الحديث. ج ١.

^٢ المباركفوري، صفي الرحمن. ٢٠٠٥م. الرحيق المختوم. المنصورة: دار الوفاء، ط ١٧. ص ١٠٠.

أبدأ^١. فالله هو خالق البشر، العليم بأسرار نفوس البشر، الرحيم اللطيف بعباده. اقتضت حكمته أن يُنزل القرآن منجّماً ومفرّقاً، لتتقبّل النفوس الأوامر وتسهل عليها تنفيذها والانخلاع عن عاداتها التي دأبت عليها سنين طويلة. فالعلاقة إذاً بين الإعجاز التشريعي والتأثيري علاقة وطيدة ومنسجمة مع فطرة الإنسان.

المبحث الثاني: الإعجاز التأثري للقرآن: أدلته ومظاهره.

في هذا المبحث سوف تتعرض الباحثة لتعريف الإعجاز التأثري لغة واصطلاحاً، وأقوال العلماء فيه. ثم نتحدث عن مظاهر التأثير القرآني من النصوص القرآنية، والسيرة النبوية والأحداث التاريخية وستقدم نماذج لثلاثة أصناف أثر فيهم القرآن الكريم: المؤمنون، والكافرون، والجمادات.

المطلب الأول: تعريف الإعجاز التأثري لغة واصطلاحاً

أولاً: الأثر في اللغة

جاء في (أساس البلاغة) قوله: "فيه أثر السيف وآثاره، وجاء على أثره وإثره، وكان هذا إثر ذلك أي بعده، ووجدت ذلك في الأثر، أي في السنة، ويقال: ما أحسن أثر هذا السيف وإثره، ولهم مآثر أي مساع يأترونها عن آبائهم. وسمنت الناقة على أثارة من شحم وهي البقية منه. وعن ابن الأعرابي: أغضبني فلان على أثارة غضب أي على أثر غضب كان قبل ذلك. وهم على أثارة من علم أي بقية، قال تعالى: ﴿ اَتَتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

^١ أخرجه البخاري في صحيحه. صحيح البخاري. كتاب فضائل القرآن. باب تأليف القرآن. الحديث ٤٩٩٤.

﴿ (سورة الأحقاف ٤٦ : ٤) منه يَأْثُرُهَا عَنْ الْأَوَّلِينَ، وَتَقُولُ: إِذَا أَثَرْتُ فَأَعْلَمُ أَثَرُ، وَإِنْ عَثَرْتُ فَأَسْلَمُ عَاثِرٌ^١.

وذكر في (مفردات ألفاظ القرآن): أثر الشيء: والجمع أي حصول ما يدل على وجوده، يقال: أثر الشيء وأثر، والجميع آثار، يقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا ﴾ (سورة الحديد ٥٧ : ٢٧) ويقول تعالى: ﴿ فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ نَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (سورة الروم ٣٠ : ٥٠). ومن هذا يقال للطريق المستدل من تقدم آثار، قال تعالى: ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ (سورة الصافات ٣٧ : ٧٠) ويقول تعالى: ﴿ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي ﴾ (سورة طه ٢٠ : ٨٤). وأثر البعير: جعلت على خقه أثره، أي علامة تؤثر في الأرض ليستدل بها على أثره، وأثر العلم: رويته، أثراً وإثارة، وأثره، وأصله: تتبعته أثره^٢. والآثار هي اللوازم المعلقة بالشيء، أو جملة الأمور التي تنتج عن الشيء المسبب لها^٣.

وخلاصة ما سبق: أن التأثير في اللغة مأخوذ من الأثر، والنتيجة أو المحصلة الدالة على وجود مؤثر ما، سواء كان المؤثر حسياً كما في قولك: أثرت البعير، أو معنوياً كما في قوله تعالى: ﴿ فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ ... ﴾.

^١ الزمخشري. أساس البلاغة. ج ١. ص ٣. مادة: أثر

^٢ الأصفهاني. معجم مفردات ألفاظ القرآن. ص ١١.

^٣ مالك بن نبي. الظاهرة القرآنية. ص ٦٠.

ثانياً: التأثير في الاصطلاح

"التأثير" مركب إسنادي من أثر الشيء أي طلب حصول ما يدل على وجوده. أما المقصود بالتأثيري: الأثر بالتحريك ما بقي من رسم الشيء، والتأثير إبقاء الأثر في الشيء، وأثر في الشيء ترك فيه أثراً^١.

إذن، كلمة (التأثيري) في اللغة مأخوذ من الأثر والنتيجة، والمحصلة الدالة على وجود مؤثر سواء أكان المؤثر حياً كما في قولهم (أثرت البعير) أم معنوياً كما في قول الله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ أَثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ (سورة الروم ٣٠ : ٥٠).

ويقصد بالأثر: كل استجابة نفسية ظهرت أو فهمت من التركيب القرآني بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، هذا من جهة، وكل أثر يحدثه التعبير القرآني على نفسية المتلقي ولقارئ والمستمع. وكل ما يحدثه القرآن من أثر يقع على النفس الإنسانية فهم بطريقة دلالة أم صراحة من تعبير القرآن المتمثل بـ (حروفه، وكلماته، وجملة، وجرسه، وأسلوبه، وموضوعاته، وسياقه، وطريقة ترتيبه وسماعه، والنظر إليه) كما يشمل الآتي: كل ملمح قصد القرآن إبرازه على لسان الشخصيات التي تحدث عنها القرآن الكريم. وكل ملمح نفسي يتطوى على تعبير القرآن، وقع على لسان المتحدث أو أحدث أثراً في النفس^٢.

^١ ابن منظور. لسان العرب. ج ٤. ص ٥٠. مادة: أثر.

^٢ الجيوسي، عبد الله محمد. ٢٠٠٦م. التعبير القرآني والدلالة النفسية. دمشق: دار الغوثاني للدراسات القرآنية. ط ١.

ومما سبق يفهم أن التأثير اصطلاحاً يعني العلامة التي يتركها الأثر في أي شيء كان، فمن القرآن الأثر الذي يتركه في قلوب سامعيه، وقارئيه وكذا في غيره.

ثالثاً: تعريف الإعجاز التأثري

لقد تقدم أقوال العلماء وإشارات واضحة حول التأثير القرآني، ووضع بعض العلماء تعريف الإعجاز التأثري ويمكننا أن نستعرض بعض التعاريف التي ذكرها العلماء كالآتي:

تعريف للدكتور فضل حسن عباس: "هو التأثير العظيم لهذا القرآن على النفوس هيبه وحلاوة، ورغبة ورهبة، ولا يعرف الكتاب في الدنيا كلها له من الأثر على تاليه ومستمعه كما لهذا القرآن، حتى أولئك الذين لا يدركون معانيه، ولا يفهمون ألفاظه نجدهم يتأثرون بهذا القرآن تصديقاً لقول تعالى: **يَهْمُ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١﴾ وَلَوْ أَنْ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْقُرْآنُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴿٢﴾** (سورة الرعد ١٣ : ٣١)، **﴿٣﴾ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَشِيعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤﴾** (سورة الحشر ٥٩ : ٢١).

ويقول د. عبد السميع خميس: "هو ما تركه القرآن من أثر ظاهر أو باطن على سامعه أو قارئه، سواء باختيار النفس أو بعدم اختيارها"^٢. فقلوله: "ما تركه القرآن من أثر ظاهر" نحو قوله تعالى:

^١ عباس. إعجاز القرآن الكريم. ص ٣٤١.

^٢ د. عبد السميع خميس العرايد. ٢٠٠٤م. مظاهر التأثير القرآني على المؤمنين. ص ٤.

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ (سورة الإسراء ١٧ : ٤٦)
 وقوله: ﴿ وَيَحْزُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (سورة الإسراء ١٧ : ١٠٩) وقوله:
 ﴿ تَقَشُّعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ (سورة الزمر ٣٩ : ٢٣). وقوله: "أو باطن" نحو قوله
 تعالى: ﴿ وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (سورة الأنفال ٨ : ٢).
 وقوله: "على سامعه أو قارئه" فقد قدم السمع على القراءة كما قدمه الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ
 السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (سورة الإسراء ١٧ : ٣٦)، وقد كان
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع القرآن أولاً من جبريل عليه السلام ثم يتلوه، قال تعالى: ﴿
 لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (١٧)
 ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (سورة القيامة ٧٥ : ١٦-١٩).

بعض الباحثين يذكرون هذه الأمثلة عن الإعجاز التأثري مع أنها تصدق على الإعجاز البياني
 وقد نوه المرحوم فضل حسن عباس أن الإعجاز التأثري فرع عن الإعجاز البياني والفرق بينهما
 مثل الطفل يتأثر ويكي وهو لا يدري الجوانب البلاغية والشرعية وغيرها.

ويمكن أن نجمع بين التعاريف التي ذكرها العلماء للإعجاز التأثري، وأحاول أن أضع تعريفاً
 للإعجاز التأثري- فأقول: هو تأثير القرآن الكريم في القلوب، وسحره في النفوس المؤمنة والكافرة
 بما يجده الشخص من روعة، ورهبة على سامعه وقارئه. ويظهر هذا الإعجاز التأثري فيما يتركه
 من أثر على سامعه وقارئه ظاهراً وباطناً، فما إن يقرأ الإنسان آيات من الذكر الحكيم أو

يسمعتها تتلى عليه، إلا ويشعر في نفسه وقعاً خاصاً، ويحسُّ في قلبه تأثيراً خاصاً، وسلطاناً عجبياً، لا يكون أبداً لغير آيات القرآن الكريم لأنه كلام رب العالمين.

رابعاً: أقوال العلماء في الإعجاز التأثري

فلقد أثر القرآن الكريم أثراً واضحاً وجلياً في تصورات الإنسان وفكره، ومعتقداته، وسلوكه، وأخلاقه، ومعاملاته، ولهذا انبرى كثير من العلماء للحديث عن أثر القرآن العظيم، منهم:

قول الإمام الخطابي رحمه الله (ت ٥٣٨٨هـ)

إن الإمام الخطابي هو أول من أشار إلى الإعجاز التأثري للقرآن الكريم، وعده وجهاً مستقلاً بذاته من وجوه الإعجاز الأخرى، حيث قال: "قلت في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعة بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منشوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة، والحلاوة في حال، ومن الروعة والهاء في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها من عادات مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق، وتغشاها من الخوف والفراق ما تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وضمراتها، وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب، وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله، وقتله، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً".^١

^١ الخطابي، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ص ٩٢-٩٣.

قول القاضي عياض رحمه الله (ت ٥٤٤هـ)

ومن تأثر بفكر الخطابي خلفه عبد القاهر الجرجاني الذي جعل الأثر النفسي للقرآن أساساً من أسس نظريته في النظم^١. ومن أشار كذلك من المتقدمين القاضي عياض إذ قال: "ومنها الروعة التي تلحق سامعية وأسماعهم عند سماعه، والهيبه التي تعترهم عند تلاوته لقوة حاله وإنامة خطره وهى على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفوراً، ويودون انقطاعه لكرهتهم له ولهذا قال ﷺ إن القرآن صعب مستصعب على من كرهه وهو الحكم وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذاباً وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه..."^٢

قول ابن قيم الجوزية رحمه الله (ت ٧٥١هـ)

ومن القدامى كذلك ابن قيم الجوزية الذي قال في كتابه الفوائد: "إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته، وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (سورة ق ٣٧: ٥٠). وذلك إن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد، فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ﴾، إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى هاهنا، وهذا هو المؤثر، وقوله: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾، فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

^١ الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد. ٢٠٠٤م. دلائل الإعجاز. تعليق: محمود محمد شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي. ط ٥. ص ٣٠.

^٢ القاضي. الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ. ج ١. ص ٢٧٣-٢٧٤.

﴿٧٧﴾ أي وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له وهذا شرط التأثير بالكلام، وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي شاهد القلب حاضر غير غائب^١.

هذه العبارات من الخطابي والقاضي عياض وابن القيم وأشباهها عند غيرهم كانت أساساً بني على اللاحقون إلا أنهم لم يتفقوا على عنوان محدد لهذا الوجه فمنهم من يمر به مروراً عابراً ولا يخصص له عنواناً محدداً ومنهم من يخلط الكلام عن التأثير بوجوه أخرى من الإعجاز.

قول الإمام ابن كثير رحمه الله (٧٧٤هـ)

ومن المفسرين الذين تحدثوا عن التأثير القرآني: الإمام ابن كثير في تفسيره إذ قال: "... وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن"^٢. وقد قال ابن كثير رحمه الله هذا الكلام في سياق الحديث عن وجوه الإعجاز في تفسيره لآيات التحدي من سورة البقرة، الآية ٢٣-٢٤ وهي: ﴿وَلَنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة البقرة ٢٣: ٢٤).
﴿وَلَنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة البقرة ٢٣: ٢٤).

^١ ابن قيم جوزية. الفوائد. ص ٣-٤.

^٢ ابن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج ١. ص ٢٠٠.

قول الإمام الزركشي رحمه الله (٧٩٤هـ)

أما الإمام الزركشي فيقول: "الروعة التي له في قلوب السامعين وأسماعهم، سواء المقربين والجاهلين، ثم إن سامعه إن كان مؤمناً به بداخله روعة في أول سماعه وخشية، ثم لا يزال يجد في قلبه هشاشة إليه ومحبة له، وإن كان جاحداً وجد فيه مع تلك الرهبة نفوراً وعباً لانقطاع مادته بحسن سمعه"^١، بيد أن الزركشي لم يذكره ضمن وجوه الإعجاز الاثني عشر التي ذكرها، وتبعه السيوطي حيث نقل كلام القاضي عياض تحت عنوان: روعته وهيبته^٢.

قول الزرقاني رحمه الله (١٣٦٧هـ)

كما تحدث الزرقاني تحت عنوان تأثير القرآن ونجاحه قائلاً: "هذا التأثير الخارق أو النجاح الباهر الذي نتحدث فيه أدركه ولا يزال يدركه كل من قرأ القرآن في تدبر وإمعان ونصفه، حاذقاً لأساليبه العربية، ملماً بظروفه وأسباب نزوله، أما الذين لم يحذقوا لغة العرب ولم يحيطوا بهذه الظروف والأسباب الخاصة فكيفهم أن يسألوا التاريخ عما يحمل هذا الكتاب من قوة محولة غير صورة العالم، ونقلت حدود الممالك عن طريق استيلائها على قلوب المخاطبين به لأول مرة استيلاء أشبه بالقهر وما هو بالقهر، وأفعّل من السحر وما هو بالسحر، سواء في ذلك أنصاره وأعداؤه، ومحالفوه ومخالفوه! وما ذاك إلا لأنهم ذاقوا يسالة فطرهم العربية بلاغته ولمسوا بحاستهم البيانية إعجازه، فوجد تياره الكهربائي موضعاً في نفوسهم لشرارة ناره أو لهطول غيثه وانبلاج أنواره"^٣.

^١ الزركشي. البرهان في علوم القرآن. ج ٢. ص ١٠٦-١٠٧.

^٢ السيوطي. معترك الأقران في إعجاز القرآن. ط ١. ج ١. ص ١٨٢.

^٣ الزرقاني. مناهل العرفان في علوم القرآن. ج ٢. ص ٤٠٧.

قول مصطفى صادق الرافعي رحمه الله (١٣٥٦هـ)

مؤلف الكتاب (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)، وهذا الكتاب مبحثاً من مباحث كتاب الكبير (تاريخ آداب العرب). ثم أفرده ليكون كتاباً بنفسه تعمّ به المنفعة ويسهل على الناس تناوله. قال بالإعجاز الموسيقي عند حديثه عن الحروف وأصواتها واعتبر سقوط حرف أو إبداله بغيره يسبب خللاً واضحاً. وقال إن حروف الكلمة متناسقة مع بلاغة النظم بالهمس والجر والقلقلة والصغير والمدة والغنة. فيذكر تحت عنوان (نظم القرآن) أن "الحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه؛ لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة"، ثم يخلص إلى أن سر الإعجاز إنما هو في (النظم)، وجهات النظم - كما يرى - ثلاث: الحروف، والكلمات، والجمل. ويفرد فصلاً لكل جهة من جهات النظم الثلاث. فيما يتعلق بحروف القرآن، يذهب الرافعي إلى أن لحروف القرآن أصواتاً موسيقية، بيد أن الرافعي مع تقريره لهذه الخاصية العجيبة، يقرر أن القرآن ليس من الموسيقى، بل هو يعلو عليها.

قول الشهيد سيد قطب رحمه الله (١٩٦٦هـ)

ومن العلماء من أطلق على هذا اللون من الإعجاز بأسماء أخرى منهم سيد قطب رحمه الله فقد تحدث عنه في أكثر من كتاب وأكثر من مؤلف فيسميه سحر القرآن أو بالتصوير الفني فيقول: "سحر القرآن العرب منذ اللحظة الأولى سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للإسلام ومن جعل على بصره غشاوة. فإننا نجد القرآن كان العامل الحاسم في إيمان من آمنوا أوائل الدعوة يوم لم يكن لمحمد ﷺ حول ولا طول ويوم لم يكن للإسلام قوة ولا منعة".^٢

^١ الرافعي، مصطفى صادق. ٢٠٠١. إعجاز القرآن وبلاغة النبوية. بيروت: دار الكتاب العربي. ص ٢٠٩-٢٤٨.

^٢ قطب. التصوير الفني في القرآن. ط ١٤. ص ١١.

قول الدكتور عبد الكريم الخطيب

من المؤلفين من استخدم مصطلح موسيقى القرآن^١ فقد أشار لذلك الدكتور عبد الكريم الخطيب بقوله: "روح يلبس جسد الكلمات، وينظم حروفها، فيجعل من العبارة الواحدة شخصاً قائمة، تعمل متساندة بكل قواها وجوارحها على إشعاع المعنى المنتصب في جوهرها، وتمثيله على مسرح الحياة ونقله إلى موطن الإقناع من العقل وإلى مجرى التأثير في الوجدان"^٢.

وبعد هذه الجولة من استعراض آراء وأقوال السادة العلماء، فإننا نتبين أن منهم من اكتفى بالحديث عن هذا اللون من الإعجاز دون البحث في تسميته أو في معناه وكان ذلك عند بعض المتقدمين منهم، وأما المتأخرون فمنهم من أطلق عليه روعة القرآن، هيبة القرآن، تأثير القرآن وسحره، ومنهم من أطلق عليه اسم الإعجاز التأثيري، ومنهم من أطلق عليه اسم الإعجاز النفسي، وأياً كان الاسم فإن المراد به هو التأثير العظيم الذي يحدثه القرآن الكريم في نفوس قارئيه وسامعيه.

المطلب الثاني: مظاهر التأثير القرآني من النصوص القرآنية والسيرة النبوية

حدثنا القرآن الكريم عن الأثر الذي تتركه آيات القرآن في نفوس مستمعيه، وفي السنة النبوية شواهد كثيرة لأثر القرآن الكريم في النفس البشرية، وهناك الأحداث التاريخية أخباراً ونماذج غير قليلة لأناس تأثروا بالقرآن. ولعل هذا هو السبب الذي يكمن وراء إشارة كثير من العلماء إلى اعتبار الإعجاز التأثيري لون من ألوان الإعجاز، بل من أبرزها. فحديث عن مظاهر التأثير

^١ الرفاعي - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. ص ١٨٣-١٨٤.

^٢ عبد الكريم الخطيب. إعجاز القرآن. ص ١٨٥.

القرآني من النصوص القرآنية، والسيرة النبوية والأحداث التاريخية سيقدم نماذج لثلاثة أصناف أثر فيهم القرآن الكريم: المؤمنون، والكافرون، والجمادات.

أولاً: تأثير القرآن الكريم على المؤمنين ومظاهره

سيكون الكلام عن تأثير القرآن الكريم على المؤمنين ومظاهره حسب مكيتها أو مدنيته في القرآن الكريم. وعلى ذلك يكون أول مظاهر تأثير القرآن الكريم حسب نزوله في العهد المكي هي: قشعريرة الجلود ولين القلوب من سورة الزمر، والخشوع والسجود في سورة السجدة، والبكاء في سورة الإسراء، ومرثم. أما الآية تحكي عن وجل القلوب هي مدنية من السورة الأنفال. وكذلك بكاء النصاري من القميسيين والرهبان هي مدنية من سورة المائدة^١.

مظاهر من النصوص القرآنية

١. قشعريرة الجلود ولين القلوب، قال تعالى: ﴿اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي تَقْشَعُرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (سورة الزمر ٣٩: ٢٣).

هذه الآية ومثيلاتها من الآيات الدالة دلالة واضحة على مدى تأثير القرآن على نفوس مستمعيه، ولذلك كانت أكثر الآيات التي استدل بها العلماء على تأثير القرآن أمثال الخطابي،

^١ ترى الباحثة من خلال تقسيمها إلى المكي والمدني أن معظم المظاهر التأثيرية للمؤمنين قد ظهرت في العهد المكي. وهذه النتيجة مطابقة لأهداف الآيات المكية التي كانت لتأسيس العقيدة الإسلامية في النفوس بالدعوة إلى عبادة الله وحده والإيمان برسالة محمد ﷺ وباليوم الآخر وإبطال المعتقدات الوثنية الجاهلية وعبادة غير الله وإيراد الحجج والبراهين على ذلك. ولما دخل الإيمان في أنفسهم ظهر آثاره من قشعريرة الجلود، والبكاء، والخشوع، والسجود، والوجل القلوب وغيرها.

والباقلائي وغيرهم. ويقول ابن كثير في تفسيره: أي هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشع منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُوْدَهُمْ وَقُلُوْبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه^١:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات لأبيات، من أصوات القينات. الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۖ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُؤْا عَلَيْهَا ضُمًّا وَعَمِيَانًا ۚ﴾ (سورة الفرقان ٢٥: ٧٢-٧٣). أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغيين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم. الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة، رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشع جلودهم، ثم تليّن مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من العبادات والعسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدح المعلى في الدنيا والآخرة.

هذا الأثر الذي يمس مركز الإحساس عند الإنسان وهو الجلد كما قرر ذلك علماء التشريح. هذا المركز الأشد حساسية داخل الكيان الإنساني عند تلاوة القرآن يحدث له هزة عنيفة وشديدة، أطلق عليها القرآن اسم (قشعرية). وهي تعني عند علماء اللغة (الزغردة) يصاب بها الجلد عندما

^١ ابن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج ١٢. ص ١٢٤.

يشعر ويتأثر بأمر معين وفي هذا الموطن ما يقشعر منه الجلد هو عندما يتأمله الإنسان ويتدبر معانيه^١.

أما المقصود بلين القلوب فقد ذكر ابن عاشور: لين قلوب المؤمنين عند سماعه أيضاً عقب وجلها العارض من سماعه قبل. واللين: مستعار للقبول والسرور، وهو ضد للقساوة التي في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ إِذْ يُؤْتَوْنَ أَثْقَالًا﴾. فإن المؤمن إذا سمع آيات الوعيد والتهديد يخشى ربه ويتجنب ما حذر منه فيقشعر جلده فإذا عقب ذلك بآيات البشارة والوعد استبشر وفرح وعرض أعماله على تلك الآيات فرأى نفسه متحلية بالعمل الذي وعد الله عليه بالثواب فاطمأنت نفسه وانقلب الوجع والخوف رجاء وترقباً، فذلك معنى لين القلوب. ويبحث هذا اللين في القلوب ما في القرآن من معاني منها الرحمة والرفقة^٢.

وجمع بين الجلود والقلوب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ولم يكتف بأحد الأمرين عن الآخر كما اكتفى في قوله: ﴿مَتَّاعِي تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لأن اقشعرار الجلود حالة طارئة عليها لا يكون إلا من وجل القلوب وروعها فكفي به عن تلك الروعة. وأما لين الجلود عقب تلك المشعيرة فهو رجوع الجلود إلى حالتها السابقة قبل اقشعرارها، وذلك قد يحصل عن تناسٍ أو تشاغل بعد تلك الروعة، فعطف عليه لين القلوب ليعلم أنه لين خاص ناشيء عن اطمئنان القلوب بالذكر كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

^١ السعيد، مصطفى. ٢٠٠٩م. الإعجاز التأثري للقرآن الكريم وأثره في الدعوة إلى الله تعالى. القاهرة: شركة أحيانا. ط ١. ص ٣٧٩.

^٢ ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور. د.ت. تفسير التحرير والتنوير. تونس: دار سحنون. د.ط. ج ١١. ص ٣٨٩-٣٩٠.

الْقُلُوبُ﴾ (سورة الرعد ١٣ : ٢٨) وليس مجرد رجوع الجلود إلى حالتها التي كانت قبل القشعريرة. ولم يُكْتَفَ بذكر لين القلوب عن لين الجلود لأنه قصد أن لين القلوب أفعمها حتى ظهر أثره على ظاهر الجلود^١.

٢. الخشوع والسجود، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ (سورة السجدة ٣٢ : ١٥-١٦). الخشوع: السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع. والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته^٢.

٣. البكاء، كان أول من تأثر به هم الأنبياء والرسل قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ ﴿١٢٥﴾ (سورة مريم ١٩ : ٥٨). قال الطبري: يقول إذا تلى على هؤلاء الذين أنعم الله عليهم من النبيين أدلة الله وحججه التي أنزلها عليهم في كتبه، خروا لله سجداً وبكياً استكانة له وتذللاً وخضوعاً لأمره وانقياداً^٣. قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ

^١ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير. ج ١١. ص ٣٩٠.

^٢ ابن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج ١١. ص ١٦٤.

^٣ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. ٢٠٠١م. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي. جيزة: دار هجر. ج ١٥. ص ٥٦٦.

يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ (سورة الإسراء ١٧: ١٠٧-١٠٩) وكذلك البكاء من آمن من أهل الكتاب متأثراً بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنْهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١١﴾﴾ (سورة المائدة ٥: ٨٢-٨٣). وقد قال ﷺ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَيْفَانِ لَا تَسْهُمَا النَّارُ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ". وقال ابن كثير في تفسيرها: "عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه عن ابن عباس، في قول الله: وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ قَالَ: إِنْهُمْ كَانُوا كِرَابِينَ -يعني: فلاحين- قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ولعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم". فقالوا: لن نتقل عن ديننا. فنزل الله ذلك من قومه^٢. وذكر الشعراوي في تفسيره: "أما سبب سجودهم وتأثرهم فلاهم أولاً خرجوا ساجدين لله تعالى قبل ذلك، لأنهم أدركوا القرآن

^١ الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك بن الترمذي. كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله. باب ما جاء في الفضل الحرس في سبيل الله. ج ٦. ص ١٩٠. رقم الحديث ١٥٦٣. حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن رزيق. وحكم الألباني: صحيح.

^٢ ابن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج ٥. ص ٣١٤. انظر أيضاً المقدسي، ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد. ٢٠٠٠م. الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرج به البخاري ومسلم في صحيحيهما. تحقيق: معالي الأستاذ الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهب. رقم الحديث ٣٦٢. بيروت: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع. ط ٣. ج ١٠. ص ٣٣٤-٣٣٥.

الذي نزل على محمد ﷺ، وتحقق لهم وعد الله فعاصروه وآمنوا به، أما هذه المرة فيخرون ساجدين لما سمعوا القرآن تفصيلاً وانفعلوا به، فيكون له انفعال آخر، لذلك يزيد هنا الخشوع والخضوع فكلما قرأوا آية ازدادوا بها خشوعاً وخضوعاً^١.

٤. شفاء من الأمراض القلوب والأجسام ورحمة، قال تعالى: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (سورة الإسراء ١٧ : ٨٢). فالآية القرآنية ثبت أن القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين ولذا يقول الشعراوي في تفسيره: "فساعة تسمى القرآن فهو يشفيك من الداء الذي تعاني منه نفسياً ويُقوي قدرتك على مقاومة الداء؛ ويُخرج طاقات الشفاء الكامنة في أعماقك، وهو رحمة لك حين تتخذه منهجاً، وتُطبِّقه في حياتك فيمنحك مناعة تحميك من المرض، فهو طبّ علاجي وطبّ وقائي في آنٍ واحد"^٢.

٥. وجل القلوب وزيادة الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَوَكِّلُونَ﴾ (سورة الأنفال ٨ : ٢) قال ابن عاشور: فالمقام هنا لبيان تأثر المؤمنين بالقرآن والوجل: خوف مع فزع فيكون لاستعظام الموجدول منه. وقد أجملت الآية ذكر الله إجمالاً بديعاً ليناسب معنى الوجل، فذكر الله يكون بذكر اسمه، وبذكر عقابه، وعظمته، وبذكر ثوابه ورحمته، وكل ذلك يحصل معه الوجل في

^١ الشعراوي، محمد متولي. د.ت. تفسير الشعراوي. د.م. د.ن. د.ط. ج ٦. ص ٣٣٤٣-٣٣٤٥.

^٢ الشعراوي. تفسير الشعراوي. ج ١٣. ص ١٦٣٦

^٣ ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور. د.ت. تفسير التحرير والتنوير. تونس: دار سحنون. د.ط. ج ١١ (ج ٢٣).

قلوب كُمل المؤمنين لأنه يحصل معه استحضر جلال الله وشدته وبأسه ورحمته وسعة ثوابه وهو وجل يبعث المؤمن إلى الاستكثار من الخير^١.

وقال الفخر الرازي: "فإن قيل: إنه تعالى قال ههنا ﴿وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ (القرآن. الرعد ١٣: ٢٨) فكيف الجمع بينهما؟ وأيضاً قال في آية أخرى: ﴿ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (سورة الزمر ٣٩: ٢٣) قلنا: الاطمئنان إنما يكون عن ثلج اليقين، وشرح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل إنما يكون من خوف العقوبة، ولا منافاة بين هاتين الحالتين، بل نقول: هذان الوصفان اجتماعاً في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ والمعنى: تقشعر الجلود من خوف عذاب الله، ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند رجاء ثواب الله^٢.

وقال السيوطي في تفسيره: "عن أبي الدرداء في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾، قال: الوجل في القلب كاجترار السَّعَةِ، أما نجد له قشعرية؟ قال: بلى! قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله، فإن الدعاء يذهب بذلك"^٣. وكذا قالت أم المؤمنين عائشة

^١ ابن عاشور. تفسير التحرير والتنوير. ج ٥ (ج ٩). ص ٢٥٦.
^٢ الرازي، محمد الرازي فخر الدين بن العلامة ضياء الدين عمر. ٢٠٠٥ م. تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب. بيروت: دار الفكر. ط ١. ج ٥. ص ١٠٠.

^٣ أبو بكر البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني. ٢٠٠٣ م. شعب الإيمان. تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد. الرياض: مكتبة الرشد. ط ١. ج ٢. ص ٣٨٢. رقم الحديث: ١٠٩٨. ولفظ الحديث: "إِنَّمَا الْوَجَلُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ كاجترار السَّعَةِ أَمَا يَجِدُهَا قَشْعِرِيَّةٌ؟" قَالُوا بَلَى، قَالَ: "فَادْعُوا إِذَا وَجَدْتُمْ ذَلِكَ فَإِنَّ الدُّعَاءَ يُسْتَجَابُ عِنْدَ ذَلِكَ".

رضي الله عنها، (ما الوجل في القلب إلا كضربة السعفة). وما أجمل ما روى عن ثابت البناني رحمه الله حيث قال: قال فلان: إني لأعلم متى يستجاب لي، قالوا: ومن أين لك؟ قال: إذا اقشعر جلدي ووجل قلبي وفاضت عينا، فذلك حين يستجاب لي^١.

٦. اطمئنن القلوب والأمان النفسي، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (سورة الرعد ١٣: ٢٨).

يقول الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أبحاثاً دقيقة غامضة منها الوجه الأول: أن الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثر لا يتأثر، ومتأثر لا يؤثر، وموجود يؤثر في شيء ويتأثر عن شيء، فالمؤثر الذي لا يتأثر هو الله سبحانه وتعالى، والمتأثر الذي لا يؤثر هو الجسم، فإنه ذات قابلة للصفات المختلفة والآثار المتنافية، وليس له خاصية إلا القبول فقط. وأما الموجود الذي يؤثر تارة ويتأثر أخرى، فهي الموجودات الروحانية، وذلك لأنها إذا توجهت إلى الحضرة الإلهية صارت قابلة للآثار الفائضة عن مشيئة الله تعالى وقدرته وتكوينه وإيجاده وإذا توجهت إلى عالم الأجسام اشتتقت إلى التصرف فيها، لأن عالم الأرواح مدير لعالم الأجسام. وإذا عرفت هذا فالقلب كلما توجه إلى مطالعة عالم الأجسام حصل فيه الاضطراب والقلق والميل الشديد إلى الاستيلاء عليها والتصرف فيها، أما إذا توجه القلب إلى مطالعة الحضرة الإلهية حصل فيه أنوار الصمدية والأضواء الإلهية، فهناك يكون ساكناً فلهذا السبب قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. الوجه الثاني: أن القلب كلما وصل إلى شيء فإنه يطلب الانتقال منه إلى حالة أخرى أشرف منها، لأنه لا سعادة في عالم

^١ السيوطي، جلال الدين. ٢٠٠٣م. الدر المنثور في التفسير بالمأثور. تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي. القاهرة: مركز هجر. ط ١. ج ٧. ص ٢٠.

الأجسام إلا وفوقها مرتبة أخرى في اللذة والغبطة. أما إذا انتهى القلب والعقل إلى الاستسعاد بالمعارف الإلهية والأضواء الصمدية بقي واستقر فلم يقدر على الانتقال منه البتة، لأنه ليس هناك درجة أخرى في السعادة أعلى منها وأكمل؛ فلهذا المعنى قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^١.

٧. حصول الرحمة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (سورة الأعراف ٧: ١٠٤). تختلف الروايات الماثورة في موضع هذا الأمر بالاستماع والإنصات إذا قرئ القرآن، بعضهم يرى أن موضع هذا الأمر هو الصلاة المكتوبة حيث قال رسول الله ﷺ: "إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا"^٢. ولقد قيل إنهم كانوا يتكلمون في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أمروا بالإنصات والفهم^٣. وتؤكد هذه الآية على أنه يجب على المسلمين وغيرهم عند قراءة القرآن أن ينصتوا ويفهموا، ويتدبروا ما يتلى عليهم، فيجب الإنصات حتى يحدث التأثير بالقرآن الكريم. ولعل هذا المعنى هو المستفاد من قول الله تعالى "وأنصتوا" ثم عقب بقوله "لعلكم ترحمون". فالرحمة الكاملة من الله تغمز الإنسان الذي أنصت إلى القرآن وتأثر به، وحصل في قلبه شيء من ذلك. وهذه دلالة واقعة وصادقة على مدى أهمية الإعجاز التأثيري الحاصل في القلوب من خلال آي القرآن الكريم، وذلك لأنه من كلام الله تعالى.

^١ الرازي. تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. ج ٦. ص ٤٦.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب أبواب تقصير الصلاة. باب صلاة القاعد. رقم الحديث: ١٠٦٣. ج ١. ص ٣٧٥.

^٣ الطبري. ١٩٩١م. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. بيروت: دار الفكر. ج ٩. ص ١٤٠.

ويقول السعدي: "والفرق بين الاستماع والإنصات في الظاهر بترك التحدث، أو الاشتغال بما يشغل من استماعه. وأما الاستماع له فهو أن يلقي سمعه يحضر قلبه ويتدبر ما يستمع. فإنه من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله تعالى، فإنه ينال خيراً كثيراً، وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً. ولهذا رتب الله تعالى حصول الرحمة على التأثر بالقرآن الكريم وفهم معانيه، فدل ذلك على أن من يتلى عليه الكتاب فلم يسمع ولم ينصت فهو محروم من هذه الرحمة، وقد فاتته خير كثير..."^١.

٨. تمثيل من يتأثر بالقرآن مثل الأترجة. قال رسول الله ﷺ: "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب. ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو. ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر. ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الخنزيرة ليس لها ريح وطعمها مر"^٢.

يقول ابن حجر: "الحكمة في تخصيص الأترجة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تجمع طيب الطعم والريح كالتفاحة لأنه يتداوى بقشرها وهو مفرح بالخاصية، ويستخرج من حبها دهن له منافع وقيل إن الجن لا تقرب البيت الذي فيه الأترج فناسب أن يمثل به القرآن الذي لا تقربه الشياطين، وغلاف حبه أبيض فيناسب قلب المؤمن، وفيها أيضاً من المزايا كبر جرمها وحسن منظرها وتفريح لونها ولين ملمسها، وفي أكلها مع الاعتدال طيب نكهة ودباغ معدة وجودة هضم، ولها منافع أخرى مذكورة في المفردات. ووقع في رواية شعبة عن قتادة كما سيأتي بعد أبواب "المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به" وهي زيادة مفسرة للمراد وأن

^١ السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. بيروت: دار الفكر. ص ١٦٧.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه. صحيح البخاري. كتاب الأطعمة. باب ذكر الطعام. رقم الحديث: ٥١١١. ج ٥.

التمثيل وقع بالذي يقرأ القرآن ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر ونهي لا مطلق التلاوة، فإن قيل لو كان كذلك لكثير التقسيم كأن يقال الذي يقرأ ويعمل وعكسه والذي يعمل ولا يقرأ وعكسه، والأقسام الأربعة ممكنة في غير المنافق وأما المنافق فليس له إلا قسمان فقط لأنه لا اعتبار بعمله إذا كان نفاقه نفاق كفر، وكأن الجواب عن ذلك أن الذي حذف من التمثيل قسمان. الذي يقرأ ولا يعمل، الذي لا يعمل ولا يقرأ، وهما شبيهان بحال المنافق فيمكن تشبيه الأول بالريحانة والثاني بالحنظلة فاكتفى بذكر المنافق، والقسمان الآخران قد ذكرا^١.

٩. ومن قبل المؤمنين من الجن، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا آهْدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ﴾ فَلَا تَخَافُ خَوْفًا وَلَا تَهْجُرُ هُجْرًا (سورة الجن ٧٢: ١٣).

مظاهر من السنة النبوية

تمثل تأثير القرآن الكريم على المؤمنين ومظاهره في مستويات. أولها تأثيره على الرسول ﷺ إذ هو المخاطب بالقرآن أولاً، ومن ثم على الصحابة الكرام والمؤمنين به.

١. تأثير القرآن الكريم على الرسول الله ﷺ. فكان الرسول ﷺ شديد التأثر بالقرآن الكريم ومعانيه ويظهر ذلك في أحواله المختلفة، منها الروايات الصحيحة الدالة على ذلك:

^١ ابن حجر. فتح الباري شرح صحيح البخاري.

- "كان خلقه القرآن"^١. وقد لخصت السيدة عائشة رضي الله عنها تأثر رسول

الله ﷺ بالقرآن بهذا القول الموجز البليغ. فكان بذلك قرآناً حياً بين أصحابه، ومن ثم كان القرآن هو محمداً ﷺ، ومحمد ﷺ هو القرآن. وحسبه ﷺ تكريماً أن تصاغ عواطفه ومشاعره فتصبح قرآناً يتلى. ولقد تحققت مبادئ القرآن ونظمه ومناهجه بعمل الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه من بعده إلى حضارة ربانية.

- بكاء الرسول ﷺ تأثراً بالقرآن إما سماعاً أو قراءة. ما ورد عن الرسول من رواية مطرف بن عبد الله عن أبيه قال: "عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَفِي صَدْرِهِ أَزْيَرُ كَأَزْيَرِ الْمَرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ"^٢.

- سماعه من غيره. وقد ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: اقرأ علي. قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: فإني أحب أن أسمع من غيري. فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿سورة النساء ٤: ٤١﴾. قال: أمسك، فإذا عيناها يعرفان"^٣.

^١ البخاري، محمد بن إسماعيل ١٩٩٩م. الأدب المفرد الجامع والآداب النبوية. ضبطه: الشيخ خالد عبد الرحمن العك. بيروت: دار المعرفة. باب من دعا الله أن يحسن خلقه (١٤٤). رقم الحديث: ٣١١. ط ٢. ص ٩٨. (صحيح لغيره).

^٢ أخرجه أحمد في مسنده. الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال. ١٠٠١م. مسند أحمد. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون. د.م: مؤسسة الرسالة. ج ٣٣. ص ٥١. رقم الحديث: ١٥٨٢٢. تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه. الجامع الصحيح البخاري. ط ١. ج ٣. ص ٢١٧. كتاب التفسير. باب: فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد. رقم الحديث: ٤٥٨٢.

- القيام بالقرآن في الليل ومداومته ﷺ على ذلك، وإطالته القيام والركوع والسجود. ومن ذلك ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بتّ عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (سورة آل عمران ٣: ١٩٠)، ثم قام فتوضأ واستن فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى الصبح^١.

- ومن حذيفة رضي الله عنه قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح مسح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ^٢.

٢. تأثير القرآن الكريم على الصحابة الكرام الذين عاصروا مهبط الوحي عليه، وسمعوا القرآن من رسول الله ﷺ والمؤمنين به، ومن الروايات الصحيحة الدالة على ذلك:

^١ أخرجه البخاري في صحيحه. الجامع الصحيح البخاري. كتاب التفسير. باب: إن في خلق السموات والأرض. رقم الحديث: ٤٥٦٩. ج ٣. ص ٢١٣.

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه. صحيح مسلم. ١٩٩٨م. تحقيق: أحمد شمس الدين. كتاب صلاة المسافرين. باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل. رقم الحديث: ٧٧٢. ج ١. ص ٣٦.

- وهذا أبو بكر رضي الله عنه أفضل الأمة بعد نبيها، لما اشتد مرض الرسول ﷺ قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، قالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمه^١.

- حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال أخبرني عروة بن الزبير: أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرقي النهار بكرة وعشية ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيقف عليه نساء المشركين وأبنائهم يعجبون منه وينظرون إليه وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين^٢.

- لما اشتد برسول الله ﷺ وجعه قيل له في الصلاة فقال: (مروا أبا بكر فليصل بالناس). قالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ غلبه البكاء قال: (مروه فليصلي). فعادته قال (مروه فليصلي إنكن صواحب يوسف)^٣.

- روى أنه قرأ سورة التكاوير، فقرأ ودموعه على وجنتيه حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ ﴿١٠﴾ فحمر مغشياً عليه يعودده الناس، لا يدري أحدهم سبب مرضه، ولذا قال عبد الله بن عمر: رأيت عمر رضي الله عنه قد أخذ نبتة

^١ أخرجه البخاري في صحيحه، الجامع الصحيح البخاري . كتاب الأذان. باب: باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة. ج ١. ص ٢٢٠. رقم الحديث: ٣١٦.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه، الجامع الصحيح البخاري. كتاب أبواب المساجد. باب المسجد يكون في الطريق غير ضرر بالناس. رقم الحديث: ٤٧٦. ج ١. ص ١٦٩-١٧٠.

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه، الجامع الصحيح البخاري. كتاب الأذان. باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة. رقم الحديث: ٦٧٨. ج ١. ص ٢٢٤-٢٢٥.

من الأرض فقال: ليتني كنت هذه النبتة، ليتني لم أخلق، ليت أُمي لم تلدني، ليتني لم أك شيئاً، ليتني كنت نسياً منسياً^١.

- أبي بن كعب رضي الله عنه كان يبكي بكاء شديداً إذا قرأ القرآن، ومما يؤكد ما رواه أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن. قال: آله سمانى لك؟ قال: نعم. قال: وقد ذكرت عند رب العالمين؟ قال: نعم، فذرفت عيناه^٢.

- وكان يحيى بن حكيم الغزال بليغ الأندلس في زمنه، فحكى أنه رام شيئاً من هذا، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثاها وينسج - بزعمه - على منوالها، قال: فاعتزفتني خشية ورقة حملتني على التوبة والأوبة^٣.

- وبدل على شيء خص به الله يعتريه من لا يفهم معانيه، ولا يعلم تفاسيره كما روي عن نصراني أنه مر بقارىء فوقف يبكي، فقليل له: مم بكيت؟ قال: للشجاعة والظلم^٤.

- يروى البخاري رحمه الله بسنده عن جابر بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ

^١ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه. د.ت. مصنف. الرياض: مكتبة الوشد. د.ط. كتاب الرهد. كلام عمر ابن الخطاب. رقم: ٣٤٤٨. ج.٧. ص.٩٨.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه. صحيح البخاري. كتاب التفسير. باب سورة البينة. رقم الحديث: ٤٦٧٧. ج.٤. ص.١٨٩٧.

^٣ السيوطي. معترك الأقران في إعجاز القرآن. ج.١. ص.١٨٤.

^٤ السيوطي. المرجع السابق. ج.١. ص.١٨٣.

خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُضِيطُّونَ ﴿٣٧﴾ (سورة الطور ٥٢: ٣٧-٣٧) كاد قلبي
أن يطير^١.

مما لا ريب فيه أنه قد استبان مما سبق الحديث عنه أن القرآن الكريم ذو أثر كبير وعظيم في نفوس من يقرأونه أو ينصتون إليه. ويتبين لنا أن من أهم مظاهر تأثير المؤمنين بالقرآن هو ما يدور حول تأثيره في القلب. وتلاحظ الباحثة أيضاً أن القلب هو آلة التأثير الحقيقية للقرآن الكريم، بل هو المعيار الذي يقاس به مدار التأثير بالقرآن. وسوف نتحدث هذا الموضوع فيما بعد في أدوات التأثير بالقرآن الكريم - بإذن الله تعالى -

ثانياً: تأثير القرآن الكريم على الكافرين ومظاهره

تنوعت مظاهر تأثير الكفار عند سماعهم للقرآن والتي منها الإعراض، والإلحاد في الآيات، والاستهزاء، والسخرية، ومنها السطو على قارئ القرآن، والعناد والجحود، التعالي والتكبر، والتواصي بعدم السماع، والهروب والتولي والتفكير، ولشتوان القلوب وصف القرآن بأوصاف لا تليق به مثل: وصفه بأساطير الأولين، ووصفه بالسحر، ووصفه بأنه إفك مفترى. وتلاحظ الباحثة أن هذه المظاهر أكرها يأتي من العهد المكي في نزول القرآن.

^١ أخرجه البخاري في صحيحه. الجامع الصحيح البخاري. ج ٣. كتاب تفسير القرآن. باب قوله وَسَخَّ بِحُدِّ رَبِّكَ قُبُلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقُبُلِ الْغُرُوبِ. رقم الحديث: ٤٨٥١. ص ٢٩٦-٢٩٧.

^٢ تلاحظ الباحثة أن معظم المظاهر السلبية للكفار تجاه النص القرآني نزلت في العهد المكي. كما هو معلوم أن الأمور مكية نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة، وقد لاقى رسول الله ﷺ وأصحابه ألواناً من العذاب جسمية ونفسية، واستمرت هذه الأحوال في المدينة بعد هجرة النبي ﷺ تجاه أهل الكتاب والمشركين. ولكن حينما تعجز قوى الكفر والشرك عن دفع الآثار القرآنية المعجزة بالعقل والمنطق والحجة والبيان، تلجأ إلى الإيذاء البدني والنفسي ولا تواجه الحجة بالحجة. وهذه

وبالرغم من ذلك، ترى الباحثة أن القرآن لم يكن تأثيره سلبياً على المشركين، بل كان دائماً إيجابياً وعميقاً ولكن بسبب حقدهم وكبرهم بدأوا يستهزئون بالقرآن ويسخرون منه ويكذبون به ويوصي بعضهم بعضاً بعدم سماعه. فهذه المظاهر السلبية صاحبت القرآن الكريم لعوامل دينية وسياسية وأخلاقية وليست نتاجاً لتأثيرات القرآن الكريم.

المظهر الأول: الإعراض

قال تعالى: ﴿الْمَرُّ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فُرُوقَهُمْ فَتُبْتُهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (سورة آل عمران ٣: ٢٣)، وقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (سورة الأنفال ٦: ٢٣)، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُّعْرِضُونَ﴾ (سورة الأنبياء ٢١: ٣٢)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ (سورة الأحقاف ٤٦: ٣)، وقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (سورة الأنعام ٦: ٤٦).

أصل الإعراض: صرف الوجه عن النظر في الشيء،^١ وحين يكون الإعراض متعمداً ومقصوداً - مع توافر الأدلة، وتواتر الآيات ووضوح الحقائق - فإن التهديد بالبطش قد يحدث الهزة التي تفتح نوافذ الفطرة حين تسقط عنها حاجز الكبر والعناد، قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ

المظاهر التأثيرية للقرآن على الكافرين نلمحها في شتى الأزمان والأعصار، فهي لا تقتصر على معاصري الرسول الله ﷺ وأصحابه فقط، بل يتعدى ويتجدد على مر العصور.

^١ ابن عاشور، محمد طاهر. د.ت. تفسير التحرير والتنوير. تونس: دار سحنون. ج ٧. ص ١٣٥.

^٢ قطب، سيد. ١٩٩٦م. في ظلال القرآن. القاهرة: دار الشروق. ط ٢٥. ج ٢. ص ١٠٣٧.

ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٥٠﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥١﴾ (سورة الأنعام ٤٦ : ٥٠-٥١).

المظهر الثاني: الإلحاد في الآيات

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقِي فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَرَبِيٌّ (سورة فصلت ٤١ : ٤٠-٤١). ويقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمٌ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة النحل ١٦ : ١٠٣).

حقيقة الإلحاد: الميل عن الاستقامة، فالإلحاد في الآيات مستعار للعدول والانصراف عن دلالة الآيات الكونية على ما دللت عليه، والإلحاد في الآيات القولية مستعار للعدول عن سماعها وللطعن في صحتها وصرف الناس عن سماعها. ويقال الحَد الحافر وحَد إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق، فالملحد هو المنحرف، ثم بحكم العرف اختص بالمنحرف عن الحق إلى الباطل^٢. يقول الطبري: "الحد والإلحاد: هو الميل، وقد يكون ميلاً عن آيات الله وعدولاً عنها بالكذب بها، ويكون بالاستهزاء مكاء وتصديده، ويكون مفارقة لها وعناداً، ويكون تحريفاً لها وتغييراً لمعانيها"^٣.

^١ ابن عاشور. التفسير التحرير والتنوير. ج ٢٤. ص ٣٠٤.

^٢ الرازي. تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح. ج ٩. ص ١١٩.

^٣ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. ٢٠٠٥م. جامع البيان في تأويل القرآن. بيروت: دار الكتب العلمية. ط ٤. ج ١١. ص ١١٥.

المظهر الثالث: العناد والجحود

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَجَحَّدُونَ﴾ (سورة الأنعام ٦: ٣٣)، ويقول: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا تَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (سورة العنكبوت ٢٩: ٤٧)، ويقول: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فِي سُذُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا تَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت ٢٩: ٤٩)، ويقول: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ (سورة المدثر ٧٤: ١٦).

والجحد والجحود، الإنكار للأمر المعروف، أي الإنكار مع العلم بوقوع ما ينكر، فهو نفي ما يعلم النافي ثبوته، فهو إنكار مكابرة. وعُدل عن الإضمار إلى قوله ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ذمًّا لهم وإعلامًا بأن شأن الظالم الجحد بالحق، وتسجيلًا عليهم بأن الظلم سجيته^١. والكلام على كل تقدير تسليية وتهوين وتكثير بأن إساءة أهل الشرك لحمد عليه الصلاة والسلام هي دون ما أساء الأقبام إلى الرسل من قبله؛ فإنهم كذبوا بالقول والاعتقاد وأما قومه فكذبوا بالقول فقط.

المظهر الرابع: السطو على قارئ القرآن

لما سمع الكافرون والمشركون القرآن شعروا في أنفسهم بتغير وعجز أمام ما يسمعون، فاحتاجوا، وكادوا يسطون بمن يتلوهم عليهم من المؤمنين، وقد سجل القرآن الكريم ذلك فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ

^١ ابن عاشور. تفسير التحرير والتنوير. ج ٧. ص ١٩٩.

يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَرٌ لِّمَصِيرِهِ
(سورة الحج ٢٢: ٧٢).

ومن الملاحظ هنا أن التأثير لم يأت من شخص قارئ مطلقاً، وإنما أتى التأثير من النص القرآني، الذي جعلهم يفقدون السيطرة على أعضائهم الجسدية، وتخوهم أحلامهم - وهم أصحاب الحلم - في ضبط انفعالاتهم أمام تلاوة آيات قرآنية مكونة من جنس ما يعرفون من الكلام الذي لا يجدون له مثل هذا التأثير البتة، ونلتبس هذا التأثير عملياً بما رواه ابن إسحاق بسنده قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعه موه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني، فإن الله سيمعني قال: فغدا ابن مسعود، حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أندية، حتى قام عند المقام ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم رافعاً بها صوته ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَحُسَبَانِ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝﴾ (سورة الرحمن ٥٥: ١-٧)، قال ثم استقبلها يقرأها، قال: فتأملوه فجعلوا يقولون ماذا قال ابن أم عبد؟ ثم قالوا: انه ليتلوا بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوا يضربون وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف عنهم إلى أصحابه، وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا

عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتُم لأغادينهم بمثلها غداً، قالوا: حسبك، قد أسمعتمهم ما يكرهون^١.

من السيرة النبوية

أثر في الأعداء كما أثر في الأتباع، فبعضهم شرح الله صدورهم بالتقوى والإذعان، والآخر صده الكبرياء والغطرسة والجحود فمنع من الإيمان، نذكر من الروايات الصحيحة من أمثلة تأثيره في الأعداء، منهم الدخول في الإسلام والاعلان بالإيمان، ومنهم ليسوا كذلك:

أ. الدخول في الإسلام وعلان بالإيمان

- إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

خلاصة الروايات في إسلامه رضي الله عنه: أنه التجأ ليلة إلى المبيت خارج بيته، فجاء إلى الحرم، ودخل في ستر الكعبة، واليَّ ﷺ قائم يصلي، وقد استفتح سورة الحاقة، فجعل عمر يستمع إلى القرآن، ويعجب من تأليفه، قال: فقلت أي في نفسي: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، قال: فقرأ: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة الحاقة ٦٩: ٤٠-٤١) قال: قلت: كاهن. قال: ﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ تنزيل من ربِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة الحاقة ٦٩: ٤٢-٤٣). قال: فوقع الإسلام في قلبي. كان هذا أول وقوع نواة الإسلام في قلبه، لكن كانت قشرة النزعات الجاهلية، وعصبية التقليد، والتعاضد بدين الآباء

^١ ابن هشام. ١٩٩٤م. السيرة النبوية لابن هشام. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ط ١. ج ١. ص ٣٥١-٣٥٢.

هي غالبية على مخ الحقيقة التي كان يتهمس بها قلبه، فبقى مجداً في عمله ضد الإسلام غير مكترث بالشعور الذي يكمن وراء هذه القشرة^١.

وكان من حلة طبعه وفرط عداوته لرسول الله ﷺ أنه خرج يوماً متوشحاً سيفه يريد القضاء على النبي ﷺ، فلقبه نعيم بن عبد الله النحام العدوي، أو رجل من بني زهرة، أو رجل من بني مخزوم فقال: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً. قال: كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت محمداً؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت، وتركت دينك الذي كنت عليه، قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر! إن أختك وختنك قد صبوا، وتركوا دينك الذي أنت عليه، فمشى عمر دأماً حتى أتاهما، وعندهما خباب بن الارت، معه صحيفة فيها: طه يقرئهما إياها. وكان يختلف إليهما ويقرئهما القرآن. فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت، وستر فاطمة أخت عمر الصحيفة. وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما، فلما دخل عليهما قال: ما هذه الصلصة التي سمعتها عنكم؟ فقالا: ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا. قال: فلعلكما قد صبوتما. فقال له ختنه: يا عمره أرايت إن كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديداً. فجاءت أخته فرفعه عن زوجها، فتفحها نفحة بيده، فدمى وجهها^٢.

وبعد إدارة النظر في جميع الروايات التي رويت في إسلامه يبدو أن نزول الإسلام في قلبه كان تدريجياً. وقد يعود سبب إسلامه إلى تأثره البالغ بقرعة آيات أو بالاستماع إلى تلاوة رسول الله

^١ المباركفوري، صفى الرحمن. ٢٠٠١م. الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

بيروت: دار الكتب العلمية. ج ١. ص ٨٠.

^٢ المباركفوري. الرحيق المختوم. ص ٨٠.

ﷺ، وقد جمع بعض الكتاب بين الروایتين بأن عمر استمع أولاً لتلاوة النبي ﷺ لسورة الحاقة فوقع الإسلام في قلبه ثم حصلت معه حادثة قراءته من أول سورة طه فتأثر بها وأسلم.

فتأمل كيف تأثر بالقرآن حين خاطب القرآن فطرته السليمة الصحيحة الأمر الذي هز إحساسه ووجدانه فلا يملك إلا الدموع والبكاء وإعلان الإسلام.

- إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ الطِّفِيلُ بْنُ عَمْرِو الدَّوسِيِّ يَحْدُثُ أَنَّهُ قَدِمَ مَكَّةَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهَا، فَمَشَى إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ فَرِيسَ، وَكَانَ الطِّفِيلُ رَجُلًا شَرِيفًا شَاعِرًا لَبِيبًا، فَقَالُوا لَهُ يَا طِفِيلُ، إِنَّكَ قَدِمْتَ بِلَادَنَا، وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا قَدْ أَعْضَلَ بَنَاءَ، وَقَدْ فَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتَّتْ أَمْرَنَا، وَإِنَّمَا قَوْلُهُ كَالسَّحَرِ يَفْرُقُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ أَبِيهِ وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ أَخِيهِ وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ وَإِنَّمَا نَخْشَى عَلَيْكَ وَعَلَى قَوْمِكَ مَا قَدْ دَخَلَ عَلَيْنَا، فَلَا تَكَلِّمْنَاهُ وَلَا تَسْمَعَنَّ مِنْهُ شَيْئًا. قَالَ فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا بِي حَتَّى أَجْمَعْتُ أَن لَّا أَسْمَعَ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا أَكَلِمَهُ حَتَّى حَشَوْتُ فِي أُذُنِي حِينَ غَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ كَرَسِفًا فَرَقًا مِنْ أَن يَبْلُغَنِي شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَهُ. قَالَ فغَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَصْلِي عِنْدَ الْكَعْبَةِ، قَالَ فَقُمْتُ مِنْهُ قَرِيبًا فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَسْمَعَنِي بَعْضُ قَوْلِهِ. قَالَ فَسَمِعْتُ كَلَامًا حَسَنًا قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أُمِّي، وَاللَّهِ إِنِّي لَرَجُلٌ لَبِيبٌ شَاعِرٌ مَا يُخْفِي عَلَيَّ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَسْمَعَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ مَا يَقُولُ فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ حَسَنًا قَبْلَتُهُ وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا تَرَكْتُهُ^١.

^١ ابن هشام. السيرة النبوية لابن هشام. ج ١. ص ٤٢٠.

- إسلام جبير بن مطعم رضي الله عنه.

يروى البخاري رحمه الله بسنده عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٥﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِطْرُونَ ﴿٦﴾ (سورة الطور ٥٢: ٣٥-٣٧) كاد قلبي أن يطير^١.

وقد أسلم عدد كبير من الصحابة رضوان الله عليهم بمجرد سماع آيات القرآن الكريم. وهذا التأثير ليس على المؤمنين فحسب، بل يؤثر على أشد الناس عداوة للمسلمين على مر الزمان اليهود والذين أشركوا كما بين الله لنا عداوتهم بقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (سورة المائدة ٥: ٨٢). ومع هذه العداوة الشديدة فإن المشركين كانوا يتأثرون بالقرآن. ويظهر ذلك في الروايات الآتية:

ب. تأثر المشركين بالقرآن واعترافهم بذلك:

- تأثيره على الوليد بن المغيرة واعترافه بذلك.

اجتمع الوليد بن نضر من قريش لبييتوا ضد النبي ﷺ أمراً واتفقوا على أن يصفوا الرسول ﷺ بالساحر، وكان ذا نسب فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً؛ قالوا: فأنت يا أبا عبد

^١ أخرجه البخاري في صحيحه. الجامع الصحيح البخاري. ج ٣. كتاب تفسير القرآن. باب قوله وَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ. رقم الحديث: ٤٨٥١. ص ٢٩٦-٢٩٧.

شمس، فقل وأقم لنا رأيا نقول به قال بل أنتم فقولوا أسمع قالوا: نقول كاهن قال لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزممة الكاهن ولا سجعه قالوا: فنقول مجنون قال ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته قالوا: فنقول شاعر قال ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر قالوا: فنقول ساحر قال ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة - قال ابن هشام: ويقال الغدق - وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وعشيرته . فحرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمه. فأبزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة وفي ذلك من قوله: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَتَنَبَّأُونَ عَنِيَ ۖ ۝ ﴾ (سورة المدثر ٧٤: ١١-١٩) قال ابن هشام: عنيد معاند مخالف^١.

- تأثيره على عتبة بن ربيعة

وروى الإمام عبد بن حميد في (مسنده) بسنده عن جابر بن عبد الله قال: اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليات هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ فقال:

^١ ابن هشام. السيرة النبوية لابن هشام. ج ١. ص ٣٠٦-٣٠٧.

أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ ثم قال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك إنا والله ما رأينا سخله قط أشأم على قومك منك فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً وأن في قريش كاهناً والله ما نتظر إلا مثل صيحة الجبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى. أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحداً وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرة فقال رسول الله ﷺ: (فرغت؟) . قال: نعم^١. فقال رسول الله ﷺ: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿كَذَٰبٌ فَصَلَّتْ ءَايَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُهُمْ وَعَمَلُونَ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لَيْلٌ ثُمَّ أَمْسَوٰى إِلَى السَّجَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ﴿فَقَضَيْنَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ﴿(سورة فصلت ٤١: ١٣ - ١٣)

^١ الألباني، محمد ناصر الدين، د.ت. صحيح السيرة النبوية. الأردن: المكتبة الإسلامية. ط ١. ص ١٥٩-١٦٠.

فقال عتبة: حسبك ما عندك غير هذا؟ قال: لا فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم. ثم قال: لا والذي نصبها بينة ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود قالوا: وملك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال؟ قال: لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة^١.

- تأثيره على أبي جهل والأخنس بن شريق وأبي سفيان حال الشرك

فقد ورد قصة استماع قريش إلى قراءة النبي ﷺ في السيرة النبوية ابن هشام عن الزهري قال: " أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق فتلاؤموا، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من حمد؟ فقال يا

^١ الألباني، محمد ناصر الدين. د.ت. صحيح السيرة النبوية. الأردن: المكتبة الإسلامية. ط ١. ص ١٥٩-١٦٠.

أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، قال الأخنس وأنا والذي حلفت به (كذلك) ^١.

فمن هذه القصة يوضح أن عدم إسلام هؤلاء سببه الكبر بعد معرفة الحق والاعتراف بتأثير القرآن الكريم والذي يدل على أنه من عند الله. ومن هنا نرى محاولة المشركين الصد عن سماع القرآن الكريم كما بينا سابقاً. فالكبر، وهو المانع الكبير من الاستجابة لدين الحق ^٢. قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ هُمُ عَذَابُ مُّهِينٍ ۝﴾ (سورة الجاثية ٤٥: ٩-٧). وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِذَا ذُكِّرَتْ بِرَبِّكَ فِي الْأَقْرَانِ وَحَدِّثْهُمْ وَلَوْ أَنَّ أَكْبَرُهُمْ عُقُولًا ۖ﴾ (سورة الإسراء ١٧: ٤٦).

ثالثاً: تأثير القرآن الكريم على غير الناطقين بالعربية

إن القرآن يملك سراً خاصاً معجزاً حتى أنه يؤثر بمجرد تلاوته على الذين لا يعرفون من اللغة العربية حرفاً، كما أنه يؤثر في عوام الناس ومعتقفيهم عندما يستمعون إلى آياته، لأنه يطرق قلوبهم

^١ ابن هشام. السيرة النبوية لابن هشام. ج ١. ص ٣٥٢.

^٢ والمستفيدون من العلاج بالقرآن الكريم هم المؤمنون به (وكذلك من غير المنكرين له ولو كانوا غير مسلمين) أما الكافرين والمنافقين والمعاندين فأثم لا تحصل لديهم الفائدة كوقاية أو علاج من قراءة القرآن أو سماعه ضد الامراض بأنواعها النفسية والعضوية لأنهم أساساً غير معترفين به ولا يؤمنون بما جاء فيه. فنتج عن ذلك أن الله ختم على حواسهم جميعاً خاصة مناطق الإدراك في مقدمة الفص الامامي للدماغ، وجعل بينهم وبين القرآن حجاب لا يفهمونه ولا يستفيدون منه بل أنه سيكون وبالاً عليهم وخسارة لهم في الدنيا والآخرة.

إيقاعه، قبل أن يطرق عقولهم، ويظهر على ملاحظهم علامات هذا التأثير بمجرد السماع لموسيقى القرآن الكريم والتلذذ بنغمة الكلمات والجمل والآيات في سوره المتعددة^١.

وهكذا نجد أثر القرآن واضحاً جلياً في جذب الناس إلى الإسلام وتحويلهم من الكفر إلى الإيمان. فيما يلي ستذكر الباحثة بعض الوقائع التي تشهد بتأثير الجرس الموسيقي للقرآن على سامعيه من غير الناطقين باللغة العربية:

- حادثة أوردناها لنا سيد قطب مما وقع له وكان معه شهود ستة على تلك الحادثة، أوردناها مطولة في تفسيره (في ظلال القرآن) عند السورة يونس من الآية ٢٦ حتى ٢٧٠:

"ولن أذكر نماذج مما وقع لغيري، ولكي أذكر حادثاً وقع لي وكان عليه معي شهود ستة ، وذلك منذ حوالي خمسة عشر عاماً . كنا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك؛ من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجنب ليس فيهم مسلم . . وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة! والله يعلم - أنه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر مما كان بنا حماسة دينية إزاء مبشر كان يزاول عمله على ظهر السفينة؛ وحاول أن يزاول تبشيره معنا! . . وقد يفسر لنا قائد السفينة - وكان إنجليزياً - أن نقيم صلاتنا؛ وسمح لبحارة السفينة وطهاها وخدمها - وكلهم نوبيون مسلمون - أن يصلي منهم معنا من لا يكون في « الخدمة » وقت الصلاة! وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً ، إذ كانت

^١ مجلة الجامعة الإسلامية. ٢٠٠٣م. الإعجاز التأثري في القرآن الكريم. المؤلف: عصام العبد زهد. المجلد الحادي عشر. العدد الثاني. ص ١١٦-١١٧.

^٢ قطب، سيد. ١٩٨٢م. في ظلال القرآن. بيروت: دار الشروق. ج ٣. ص ١٧٨٦.

المرّة الأولى التي تقام فيها صلاة الجمعة على ظهر السفينة . . . وقمت بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة؛ والركاب الأجانب - معظمهم - متحلقون يرقبون صلاتنا! . . . وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح « القدّاس!!! » فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا! ولكن سيّدة من هذا الحشد - عرفنا فيما بعد أنّها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم « تيتو » وشيوعيته! - كانت شديدة التأثير والانفعال ، تفيض عيناها بالدمع ولا تمالك مشاعرها . جاءت تشد على أيدينا بحرارة؛ وتقول : - في إنجليزية ضعيفة - إنّها لا تملك نفسها من التأثير العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح! . . . وليس هذا موضع الشاهد في القصة . . . ولكن ذلك كان في قولها : أي لغة هذه التي كان يتحدث بها « قسيسكم »! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم « الصلاة » إلا قسيس - أو رجل دين - كما هو الحال عندها في مسيحية الكنيسة! وقد صبحنا لها هذا الفهم! . . . وأجبتها : فقالت : إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب ، وإن كنت لم أفهم منها حرفاً . . . ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول : ولكن هذا ليس الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه . . . إن الموضوع الذي لفت حسي ، هو أن « الإمام » كانت ترد في أثناء كلامه - بهذه اللغة الموسيقية - فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه! نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعاً . . . هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث في رعشة وقشعريرة! إنّها شيء آخر! كما لو كان الإمام - مملوفاً من الروح القدس! - حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها! - وتفكرنا قليلاً . ثم أدركنا أنّها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناء الصلاة! وكانت - مع ذلك - مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة ، من سيّدة لا تفهم مما تقول شيئاً!"

^١ قطب، سيد. ١٩٨٢م. في ظلال القرآن. بيروت: دار الشروق. ج ٣. ص ١٧٨٦.

رابعاً: تأثير القرآن الكريم على الجمادات والنباتات والحيوانات ومظاهرها

وليس الإنسان فقط مفلطوراً على الإيمان بخالقه بل الجماد والنبات والحيوان كذلك. ولقد بدأ العلم منذ سنوات وبالوسائل السمعية والبصرية يكتشف شيئاً من لغات الحيوان وطرق مخاطبه. كما تبين أن للنباتات شعوراً وإحساساً وربما لغة خاصة به كالحيوان والطير^١. وسيكشف العلم ذلك لاحقاً أيضاً في كل شيء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝﴾ (سورة الإسراء ١٧: ٤٤).

تأثير القرآن على الجمادات

يخبرنا الله تعالى عن القرآن بقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُظَرُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾ (سورة الحشر ٥٩: ٢١). قال الإمام الشوكاني في تفسير هذه الآية: "أي: من شأنه وعظمته وجوده ألفاظه وقوة مبانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيت مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وطخامة الجرم خاشعاً متصدعاً أي: متشققاً من

^١ Stephen Harrod Buhner. 2004. *The Secret Teachings of Plants: The Intelligent of the Heart in the Direct Perception of Nature*. Vermont: Bears & Company. Page:2. "the plants can speak to human beings if only human beings will listen and respond to them in proper state of mind". Darwin, Charles. 1998. *The Expression of the Emotions in Man and Animal*. New York: Oxford University Press. 3rd edition. Page: 88. "the emission of sound-vocal sounds- sound otherwise produced-Erection of the dermal appendages, hairs, feathers, etc under the emotions of anger and terror. The drawing back of the ears as a preparation for fighting, and as an expression of anger. Erection of the ears and raising the head, a sign of attention."

خشية الله سبحانه حذرا من عقابه وخوفا من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله وهذا تمثيل وتخييل يقتضي علوا شأن القرآن وقوة تأثيره في القلوب"^١.

وقال سيد قطب: "إنه الإيقاع الذي يتخلل القلب ويهزه؛ وهو يعرض أثر القرآن في الصخر الجامد لو تنزل عليه. وهي صورة تمثل حقيقة. فإن لهذا القرآن لثقلًا وسلطانًا وأثرًا مزلزلًا لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته. ولقد وجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما وجد ، عندما سمع قارئاً يقرأ: ﴿ وَالطُّورِ ١ وَكُنُوزِ فَسْطَاطِ ٢ فِي رَقٍّ مَّنْشُورِ ٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ ﴾. فارتكن إلى الجدار . ثم عاد إلى بيته يعودده الناس شهراً مما ألم به! واللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متفتحاً لتلقي شيء من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازاً ويرتجف ارتجافاً. ويقع فيه من التغيرات والتحولات ما يمثله في عالم المادة فعل المغنطيس والكهرباء بالأجسام أو أشده. والله خالق الجبال ومنزل القرآن يقول : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خُسَيْعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتَأْكَ الْأَمْتَلُ نَصْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ ﴾ (سورة الحشر: ٥٩: ٢١)."

وقوله تعالى في وصف الحجارة : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٧٤ ﴾ (سورة الشورى ٢: ٧٤). ذكر ابن كثير في تفسير الآية: "فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من

^١ الشوكاني. فتح القدير. ج ٧. ص ١٩٧.

^٢ سيد قطب. في ظلال القرآن. ج ٦. ص ٣٥٣٢.

الآيات والمعجزات فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما تتفجر منها العيون الجارية بالأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، وإن لم يكن جارياً، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، وفيه إدراك لذلك بحسبه. كل حجر يتفجر منه الماء، أو يشقق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل، فهو من خشية الله عز وجل، نزل بذلك القرآن^١.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لَلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ (سورة الرعد ١٣ : ٣١). يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ أي: لو كان في الكتب المأخوذة كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له، ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: مرجع الأمور كلها إلى الله، عز وجل، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضل فلا هادي له، ومن يهد الله فلا مضل له. أن معجزة كل نبي انقضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تنقضي عجائبه ولا يخلق كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء^٢.

^١ ابن كثير. ٢٠٠٠م. تفسير القرآن العظيم. تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ط ١. ج ١. ص ١٢٨. انظر الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. ١٩٩٧م. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تهذيب: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي. دمشق: دار القلم. ط ١. ج ١. ص ٢٨٨-٢٩٩.

^٢ ابن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج ٢. ص ٥١١.

وكذلك طاعة السماء والأرض بأمر الله، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٢﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٣﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَذَرْتُمْ صَعِقَةً مِّثْلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٤﴾﴾ (سورة فصلت ٤١: ١١-١٣)

وفي تفسير في ظلال القرآن يقول: "إنها إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته. فليس هناك إذن إلا هذا الإنسان الذي يخضع للناموس كرهاً في أغلب الأحيان. إنه خاضع حتماً لهذا الناموس، لا يملك أن يخرج عنه، وهو ترس صغیر جداً في عجلة الكون الهائلة؛ والقوانين الكونية الكلية تسري عليه رضي أم كره. ولكنه هو وحده الذي لا ينقاد طائعاً طاعة الأرض والسماء. إنما يحاول أن يتفلسف، وينحرف عن الجرى الطبيعي اللين؛ فيضطرب بالنواميس التي لا بد أن تغلبه وقد تحطمه وتسحقه فيستسلم خاضعاً غير طائع".

بل قد جاء في الأحاديث الصحيحة ما يدل على أن للجبل مشاعر وكذلك الجذع والحجر الأسود. فقد جاء في الصحيح عن جيل أحد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدمه فلما قدم النبي ﷺ راجعاً وبدا له أحد قال: هذا

^١ سيد قطب. في ظلال القرآن. ج ٥. ص ٣١١٤.

جبل يحبنا ونحبه"^١، وكحنين الجذع المتواتر خبره عن ابن عمر رضي الله عنهما: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحنّ الجذع فأثابه بمسح يده عليه"^٢.

وجاء عن الرسول ﷺ: "إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن"^٣، وجاء في صفة الحجر الأسود بأنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة فقد جاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يأتي هذا الحجر يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق"^٤ وغير ذلك مما في معناه.

تأثير القرآن على النباتات

سبق ذكره من الحديث عن تأثير القرآن على الجماد، فهناك تأثيره أيضاً على النبات. ولتعلم أن النباتات عالم قائم بذاته، وما زال العلماء وسظلون يجتهدون في دراسته ويقطعون فيه أشواطاً شاسعة من البحث والتنقيب. وقد قسم العلماء النبات إلى عدة أقسام مختلفة بالنسبة لصناعتها التشريحية، أو التناسلية، أو النباتية. وهذا النبات فيه من آيات الله ما فيه تكوين الغذاء وهو ما يعرف بعملية التحليل الضوئي ويقرر العلماء أن هذه العملية هي أصعب وأعجب عملية تقوم

^١ أخرجه البخاري في صحيحه، الجامع الصحيح البخاري، كتاب المغازي، باب: أحد جبل يحبنا ونحبه. رقم الحديث: ٤٠٨٤. ج ٣. ص ١١١.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه، الجامع الصحيح البخاري، كتاب المغازي، باب: علامات النبوة في الإسلام. رقم الحديث: ٣٥٨٣. ج ٢. ص ٥٢٥.

^٣ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب: فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم، وتعليق الحجر عليه قبل النبوة. رقم الحديث: ٢٢٧٧. ج ٤. ص ١٧٨٢. وشرح محمد فؤاد عبد الباقي: (إني لأعرف حجراً بمكة) فيه معجزة له صلى الله عليه وسلم وفي هذا إثبات التمييز في بعض الجمادات وهو موافق لقوله تعالى في الحجارة وإن منها لما يهبط من خشية الله وقوله تعالى وإن من شيء إلا يسبح بحمده.

^٤ أخرجه أحمد في مسنده، رقم الحديث: ٢٢١٥. ج ١. ص ٢٤٧. تعليق شعيب الأرناؤوط: صحيح.

بها الحياة ولا يمكن لأي تركيبات أو أجهزة أن تقوم بمثل ما تقوم به ورقة خضراء في أي نبات، وفي عام ١٧٧٩ اكتشف العلماء أن النبات يتنفس كالإنسان والحيوان فيأخذ ثاني أكسيد الكربون ويطلق الأكسوجين، ويصحب ذلك التنفس ارتفاع في درجات الحرارة، ويتم التنفس بالليل والنهار. لقد زود الله هذه الورقة بأجهزة حساسة يستطيع أن يشعر بما يدور حوله، والنبات يتأثر بكلام الله تعالى. وهناك بعض الأبحاث عن تأثير الصوت على النبات تؤكد هذه الحقيقة ويزاد نموه ومقاومته تجاه الأمراض. اكتشف علماء الأحياء أن للنباتات حياة جنسية. وفوجئ العلماء مجدداً عندما اكتشفوا منذ عشرات السنوات أن للنباتات أيضاً جهاز مناعة، يحميها ويمنعها من مقاومة الأمراض، ليتأكدوا بذلك أن النباتات في الواقع كائنات حية تمتلك الكثير من القدرات^١.

وأمام هذه الحقيقة لا غملاً إلا أن نقول سبحان الله، إن الذي خلق النبات وزوده بهذه العجائب، قادر على جعل الخلق يحس ويغن إلى فراق رسول الله ﷺ كما سبق ذكره. ومن هنا نلخص بعض الاستنتاج من هذه الحقائق كلها عن النبات ما يلي:

١. أن النبات يحس ويشعر كما يشعر الإنسان وإن كان ذلك بالطريقة الخاصة به كعالم النبات. وهذه ما لا يعرفه إلا الله تعالى.
٢. أن النبات يتأثر كما يتأثر الأحياء من البشر والحيوان. ومن ثم فإنها تتأثر بالقرآن الكريم عن طريق الإحساس السابق الذكر.

^١ نوفل، عبد الرزاق. الله والعلم الحديث. بيروت: دار الفكر. ص ٣٨.

^٢ Computer and Computing Technologies in Agriculture III, Third IFIP TC12 International Conference 2009. Beijing, China. Lirong Qi et al. 2009. *Influence of Sound Wave Stimulation on the Growth of Strawberry in Sunlight Greenhouse*. Germany: Springer. Page449. Benjamin D. Koen et al. 2008. *The Oxford Handbook of Medical Ethnomusicology*. New York: Oxford University Press, Inc. page370.

٣. أن يعلم الإنسان قدرة الله في هذا الكون الفسيح من إنسان وجماد وحيوان ونبات وغير ذلك وهذا قمة التأثير في القرآن الكريم.

وقد أشار إلى ذلك الدكتور محمد راتب النابلسي بقوله: "فالنباتات كالأجرام السماوية وكمخلوقات الله الأخرى تشعر وتسمع وتستجيب سلباً أو إيجاباً لما حولها من مؤثرات خارجية" مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا خَلْقًا غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سورة الإسراء ١٧: ٤٤). وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (سورة النور ٢٤: ٤١). وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة الحشر ٥٩: ٢٤). وقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (سورة الرحمن ٥٥: ٦).

يذكر أن بعض التجارب الحديثة أثبتت أن قراءة القرآن تؤثر على النباتات فتزيد في إنتاجها. ففي مقال علمي عن بحث علمي منشور نقله لنا مجلة المجتمع بعنوان: "تلاوة القرآن الكريم عند النباتات تضاعف إنتاجه"، حيث قام به باحث من الأردن وهو المهندس عدنان محمد دين، توصل إلى نتيجة "أن قراءة القرآن عند النباتات يضاعف غلة الزرع ومستويات إنتاجه"^٢.

^١ موسوعة النابلسي بعنوان سلوك النبات على هذا الرابط

^٢ <http://www.nabulsi.com/blue/ar/art.php?art=6287&id=182&sid=186&ssid=187&sssid=188&waw&id=182&sid=186&ssid=187&sssid=188>

النبات = أربعة بيوت بلاستيكية موحدة في حجمها. تاريخ الوصول: ٢٣ نوفمبر ٢٠١١.

^٢ مجلة المجتمع. ١٩٩٩م. عدنان محمد دين. تلاوة القرآن الكريم عند النباتات تضاعف إنتاجه. العدد ١٣٤٨. ص ٦٢.

وأشار الدكتور إلى بحث حول تأثير القرآن على النبات وتتمنى أن تكون هناك أبحاث مشابهة لتأييد ذلك وهذا ملخص البحث:

أجري في هذا البحث تجربة في حديقة كلية العلوم عام ١٩٩٧م فنصب الباحث أربعة بيوت بلاستيكية موحدة في حجمها، وزرع فيها قمحاً من نوع معين واحد، وملأها بكميات متساوية من التراب، وغرس فيها بذور الخطة على عمق واحد، وتم تسميدها جميعاً بكميات متساوية من سماد معين، وسقيت جميعاً بذات العدد من السقيا، وبكميات متماثلة من الماء، العجيب أنه أراد التوحيد في كل شيء في الحجم والتربة، ونوع البذور والسقيا- زمن السقيا- ونوع السماد، ثم اختار إحدى طالباته لتقرأ السور القرآنية التالية على أحد البيوت البلاستيكية، سورة يس، والفاحة، والإخلاص، وآية الكرسي، مرتين في الأسبوع على البيت الأول- عندنا أربعة بيوت - وفي البيت الثاني كلف طالبة أن تأتي بنبات وتمزقه أمام بقية النبات وتعذبه وتقطع أوصاله، وتذكر كلمات قاسية ونابية أمام هذا النبات، مرتين في الأسبوع، وكلف طالبة ثالثة بضرب النبات الثالث، وكيه، وتعريض ورقاته للقص، فهناك نبات عذب أمامه نبات، وهناك نبات تلقى التعذيب مباشرة، وهناك نبات قرأت عليه آيات القرآن الكريم، وأما البيت الرابع فترك ينمو نمواً طبيعياً، وأطلق عليه اسم البيت الضابط، فماذا كانت النتيجة؟ فالبيت الرابع هو المقياس، والأول سمع القرآن، والثاني لقي التعذيب، والثالث رأى التعذيب، والنتيجة التي عرضها في مؤتمر علمي: أن نبات البيت الذي استمع للقرآن الكريم ازداد طوله أربعة وأربعين بالمئة من طول النبات الضابط في البيت الرابع، وازدادت غلته مئة وأربعين بالمئة من غلة البيت الرابع الضابط، أما البيت الثاني والثالث اللذان تحملا التعذيب، ورؤيته فقد تدنى طول نباتهما خمسة وثلاثين بالمئة،

وهبط إنتاجه إلى ثمانين بالمئة، وهذا تفسير علمي للبركة، فحينما يزرع المؤمن يقرأ القرآن بنفس طيبة، ويذكر الله دائماً فهذا الذكر أمام النبات يزيد في الغلة^١.

رأينا في البحث السابق أن للجملادات والنباتات تميزا وتأثرا على القرآن الكريم. ويخبرنا الله أنه لو نزل هذا القرآن على جبل لتأثر ولتصدع من خشية الله.

تأثير القرآن على الحيوانات ومظاهره

الحيوانات من مخلوقات الله تعالى التي أودعها في الكون لخدمة الإنسان. فهي مسخرة ومذللة له بأمر من الله حيث قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الجاثية ٤٥: ١٣). وكل هذه المخلوقات مسخرة بأمر الله وهي في ذات الوقت تسبح بحمد الله ولا تفتر عن ذلك أبداً وتتأثر بالقرآن وتستجيب حسب الطبيعة التي جعلها الله عليها مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (سورة الأنعام ٦: ٣٨). ومن مظاهر التأثير بالقرآن لدى الحيوانات من يكون داعية إلى الله كما ورد في سورة النمل عن فقد الهدد حيث يقول تعالى ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (١) لَأَعَذَّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْهَبَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِمِلْطَنِ مُبِينٍ (٢) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٣) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ (٤) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ

^١ موسوعة النابلسي. الموقع نفسه.

دُونَ اللَّهِ وَرَبِّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٦﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٨﴾ (سورة النمل ٢٧: ٢٦-٢٧). قال ابن كثير: "لما كان الهدهد داعياً إلى الله تعالى وداعياً إلى الخير وعبادة الله وحده لا شريك له وأن السجود لا يكون إلا له نهي النبي ﷺ عن قتله".^١

وذكر سيد قطب: "وكثر الهدهد، ومعه نبا عظيم، بل مفاجأة ضخمة لسليمان، فهو يبدأ حديثه بمفاجأة تطلعي على موضوع غيبيته، وتضمن إصغاء الملك له: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾... فأني ملك لا يستمع وأحد رعاياه يقول له: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾؟! فإذا ضمن إصغاء الملك بعد هذه المفاجأة أخذ في تفصيل النبا اليقين الذي جاء به من سبأ. ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب. صاحب إدراك وذكاء وإيمان، وبراعة في عرض النبا، ويقظة إلى طبيعة موقفه، وتلميح وإيحاء أريب. فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية. ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله: ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض، وأنه هو رب العرش العظيم.. وما هكذا تدرك الهدهد. إنما هو هدهد خاص أوتي هذا الإدراك الخاص، على سبيل الخارقة التي تخالف المؤلف".^٢

^١ ابن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج ٣. ص ٣٧٤.

^٢ سيد قطب. في ظلال القرآن. ج ٥. ص ٢٦٣٨.

ومن مظاهر التأثير بالقرآن لدى الحيوان ما يسمى بالهداية والإرشاد. وهذا تلحظ بوضوح في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (سورة النحل ١٦: ٦٨).

وهناك قصة أخرى جالت الفرس عند نزول الملائكة لتستمع قراءته أسيد بن خضير في الليل تأثراً بالقرآن. ورد في صحيح مسلم حديث:

"وَحَدَّثَنِي حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الْحُلَوِيُّ وَحُجَّاجُ بْنُ الشَّاعِرِ وَتَقَارَبَا فِي اللَّفْظِ، قَالَا: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارِدٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَبَابٍ، حَدَّثَهُ، أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ حَدَّثَهُ، أَنَّ أَسِيدَ بْنَ خُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَهُ يَقْرَأُ فِي مَرْبَدِهِ إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، قَالَ أَسِيدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظِّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي، فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، قَالَ: فَعَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَيْنَمَا أَنَا بِالرَّحَةِ مِنْ خَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مَرْبَدِي، إِذْ جَالَتْ فَرَسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأْ ابْنَ خُضَيْرٍ، قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأْ ابْنَ خُضَيْرٍ، قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأْ ابْنَ خُضَيْرٍ، قَالَ: فَانْصَرَفْتُ، وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظِّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْمَعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لِأَصْبَحْتَ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَرُ مِنْهُمْ "¹.

¹ أخرجه مسلم في صحيحه. صحيح مسلم. كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب: نزول السكينة لقراءة القرآن. رقم الحديث: ٧٩٦. ج ١. ص ٥٤٨.

المبحث الثالث: لمحة تاريخية عن الإعجاز التأثري وتطوره عبر الأزمان

نشأ الإعجاز التأثري منذ نزول الوحي على النبي ﷺ واستمر إلى يومنا الحاضر، وقد مرت نشأة الإعجاز التأثري في كتب الإعجاز بمرحلتين أساسيتين. أولها، مرحلة النشأة. وثانيهما، مرحلة التأصيل العلمي للإعجاز التأثري. وفي هذا المبحث سوف تتطرق الباحثة عن مرحلة ثالثة ألا وهي مرحلة الاكتشافات العلمية للإعجاز التأثري. وهذا ينسجم مع السبق العلمي الهائل في العصر الذي نعيش فيه. وقد كثرت حقائق وتجارب علمية دالة على الإعجاز التأثري للقرآن الكريم في وجهة نظر العلم والتكنولوجيا في يومنا الحاضر. فنستطيع أن نقول بأن الإعجاز التأثري تدرج في ثلاثة مراحل:

- مرحلة النشأة (من عهد النبي ﷺ حتى القرن الثالث الهجري)
- مرحلة التأصيل العلمي للإعجاز التأثري (من القرن الرابع الهجري حتى القرن الحالي)
- مرحلة الاكتشافات العلمية للإعجاز التأثري (في القرن الحالي)

المطلب الأول: مراحل نشأة الإعجاز التأثري وتطوره

أولاً: مرحلة النشأة (من عهد النبي ﷺ حتى القرن الثالث الهجري)

أن نشأة الإعجاز التأثري قديمة قديم القرآن الكريم، ومربطة ارتباطاً أساسياً بلحظة نزول القرآن على قلب النبي ﷺ حيث تعلق قلبه بالقرآن تعلقاً يلفت النظر ويثير الانتباه ويدعو إلى التعجب والسؤال. وأن التاريخ لم يتحدث لنا - حسب علمي - عن مصنفات في هذا العلم في عهد النبي ﷺ وصحابته، لعدم حاجتهم إليه، فأثر القرآن في نفوسهم واضح معلوم، والاعتبار الآخر أنهم رأوا الإعجاز التأثري للقرآن الكريم واقعاً وعاشوه كما حدث مع المعلقات السبع وغيرها.

ذلك عندما رأوه يتجسد في إسلام كثير منهم، عندما سمعوه، فاهترزت له قلوبهم، وأخذتهم روعته وسحر بيانه، فانصاعوا إلى الإسلام طائعين. رأوا ذلك في إسلام عمر الخطاب، والطفيل بن عمرو الدوسي، وأبي ذر الغفاري وغيرهم. ورأوا أكثر من ذلك أثراً لإعجاز التأثيري على وجه الوليد بن المغيرة الذي لم يؤمن بالقرآن، إلا أنه لما سمعه تغير وجهه، ونطق لسانه بما حفظه عنه التاريخ ووعاه فقال: "إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذوق وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل".^١

كان الصحابة يرون ذلك وغيره فيغنيهم عن التأليف والتصنيف في بيان الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم. إذن، تمثل نشأة هذا الوجه الإعجازي للقرآن الكريم في هذه المرحلة على ثلاثة أمور، وذلك كما يأتي:

أولاً: أمر الله تعالى في كتابه بالحرص على إسماع المشركين القرآن الكريم ليكون ذلك عوناً على دعوتهم للإسلام. قال ابن حجر: "لا خلاف بين العقلاء أن كتاب الله تعالى معجز لم يقدر أحد على معارضته بعد تحديهم بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَلَا أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجَرَهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغَهُ مَأْمَنَهُ﴾ ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون." (سورة التوبة ٩: ٦). فلولا أن سماعه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه ولا يكون حجة إلا وهو معجز. والمعجزة لا بد لها من أثر في من تعجزه إما تصديقاً أو تكذيباً.^٢

^١ ابن هشام. السيرة النبوية. ج ١. ص ٣٠٦-٣٠٧.

^٢ السيوطي. الإتيان في علوم القرآن. ج ١. ص ٣٦٩.

ثانياً: ما ورد في كتب السيرة والتفسير وأغلب الكتب التي تناول قضية الإعجاز عن لجوء رسول الله ﷺ لإعجاز القرآن التأثيري كوسيلة أساسية من أسس الدعوة للإسلام وظهور أثر هذه الوسيلة الفعّال في كل من استعملت معه. إما قبولاً واعتناقاً للإسلام أو نفوراً وإعراضاً عنه أو إقراراً لإعجاز القرآن في حاله.

ثالثاً: إن الإعجاز التأثيري في هذه المرحلة وهي مرحلة النشأة الأولى يتمثل في الممارسة والسلوك العملي للإعجاز نفسه دون التأليف فيه أو وضع قواعد أو أصول له، وإنما تدلّ الشواهد الكثيرة على ممارسته في حياة المسلمين الذي سبق لنا ذكره في المبحث الثالث - اتخاذه وسيلة من وسائل الدعوة إلى الإسلام-

ثانياً: مرحلة التأصيل العلمي للإعجاز التأثيري (من القرن الثالث الهجري حتى القرن الحالي)

في القرن الثالث الهجري^١ أشار الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) من خلال ثانيا حديثه عن الإعجاز البلاغي للقرآن إشارات خاطفة للإعجاز التأثيري. فنجد ذلك في كتاب (البيان والتبيين)^٢، وكتاب (الحيوان)^٣. و الجاحظ أيضاً يذكر في كتاب الحيوان مؤلف آخر له في نظم القرآن وكأنه يرد فيه

^١ وقد زاد من عدد مؤلفات الإعجاز القرآني في القرن الثالث ما ظهر من فتنه خلق القرآن، والقول بالصرفة، يقول محمد أبو زهرة "أول ما كتب في إعجاز القرآن من ناحية البيان، كان في الوقت الذي جاء فيه القول بالصرفة بين يفي وإثبات". انظر: محمد أبو زهرة. ١٩٧٠م. المعجزة الكبرى. د.م: دار الفكر العربي. د.ط. ص ٧٥.

^٢ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن محبوب الكناقي الليثي البصري. ١٩٩٨م. البيان والتبيين. تحقيق: عبد السلام هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي. ط ٧.

^٣ الجاحظ. ١٩٦٦م. الحيوان. تحقيق: مصطفى هارون. د.م: مكتبة مصطفى الحلبي. ط ٢.

على النظام الذي قال بالصّرفة فيقول: "كُتِبَ لك كتاباً أجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي" وقد سماه في كتاب الحيوان: "الاحتجاج لنظم القرآن، وغريب تأليفه، وبديع تركيبه..."^١ وقد تحدث فيه عن مفردات القرآن، وبعض أساليب البيان التي اصطلاح عليها فيما بعد بعلم البلاغة، وهذا الكتاب للأسف لم تحظ به المكتبات الإسلامية والعربية لأنه مفقود، وكل ما وصلنا منه شذرات وبعض عبارات، ذكرها هو في كتبه المتفرقة^٢. ثم جاءت القرون التالية وجاء عدد من علمائنا القدامى والحديثين ممن تحدثوا عن الإعجاز التأثيري. ولاحظوا تأثير القرآن الكريم في القلوب وأثره في النفوس فاعتبروا ذلك التأثير من وجوه إعجاز القرآن وعبروا عنه بعبارات متفاوتة. ومن هؤلاء العلماء:

١. الإمام الخطابي (ت ٣٨٨هـ)

إن الإمام الخطابي هو أول من أشار إلى الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، وعدّه وجهاً مستقلاً بذاته من وجوه الإعجاز القرآني الأخرى. وذلك بعد أن ذكر أوجه الإعجاز القرآني وحدودها

^١ الجاحظ. الحيوان. انظر في المقدمة. خطبة الكتاب. ص ١.
^٢ وعلى بعض أقوال من رأى الكتاب، وكان أقربهم إلى أبي عثمان زمناً، وهو ابن الخياط المعتزلي، (أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط) المتوفي أوائل القرن الرابع، فهو يقول في كتابه (الانتصار في الرد على ابن الراوندي الملحد): "لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة، بلغ في ذلك ما بلغه الجاحظ، ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن، وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد ﷺ على نبوته غير كتاب الجاحظ"، انظر: الخياط، عبد الرحيم بن محمد عثمان. ١٩٨٨م. الانتصار في الرد على ابن الراوندي الملحد. تقديم ومراجعة: محمد حجازي. القاهرة: المكتبة الثقافية الدينية. د. ط. ص ٦٠، فهذا الكلام يقطع بما لا يكون فيه مجالاً للشك أن الجاحظ وإن مال في بادئ الأمر مع أستاذه في الصّرفة إلا أنه كان يعتقد ببلاغة القرآن في نظمته وأنه قول الله الذي لا يستطيع بشراً أن يأتي بمثله، فقد بهره القرآن، وأرجع سر إعجازه في بداعة نظمته الذي ينفرد به، وفي تصويره المعاني، وإخراجها بصورة عجيبة من التأليف و النظم، وها هو يعلن عن إعجاز القرآن بنظمته في قوله: "وفي كتابنا المنزل، الذي يدل على أنه صدق، نظمته البديع، الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به". انظر: الجاحظ. الحيوان. باب الخنزير. ج ١. ص ٣٢٢.

وبين معالمها، عاد فأكد أن أهم وجه منها بل أهمها على الإطلاق هو الإعجاز التأثري حيث قال لرسالته: (قلت في إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعة بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً أو منثوراً - إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال... الخ)^١. يبدو أن الإمام الخطابي أنهى كلامه ببيان رأيه في الإعجاز القرآني على وجه العموم، وفي الإعجاز التأثري على وجه الخصوص، وهذا واضح في قوله "صنيعة في القلوب، وتأثيره في النفوس". ولعله بهذا قد سمي الإعجاز التأثري، وله الفضل سبق في هذه التسمية. وأن الإمام الخطابي ليس أول من أشار إلى هذا النوع من الإعجاز بل قد سبقه الجاحظ بقوله "الأثر النفسي للكلام" ولكن الإمام الخطابي هو أول من تحدث في هذا الإعجاز وأسماه^٢.

٢. الإمام الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)

لقد ألق الإمام الباقلاني كتاباً مشهوراً أسماه "إعجاز القرآن" حيث كان رداً على مطاعن الملاحدة في القرآن. حصر الإمام الباقلاني وجود الإعجاز القرآني في عشرة أوجه، ذكر فيها نظم القرآن وأسلوبه وبلاغته، وتوسع في ذلك كثيراً، ثم أوضح أن القرآن احتوى على تنبؤات عن المستقبل، ثم ذكر أن القرآن معجز في حديثه عن الأحداث الماضية وقصص السابقين. وقد عد الإمام الباقلاني الإعجاز التأثري ضمن الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم. ولم يفته أن يذكر قوته التأثيرية على النفوس والقلوب فقال: "فالقرآن أعلى منازل البيان وأعلى مراتبه فأجمع وجوده الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه من تعديل النظم، وسلامته، وحسنه ومنهجه، بحسن موقعه في السمع

^١ الخطابي. بيان إعجاز القرآن. ص ٧٠.

^٢ خليل، مصطفى السعيد مصطفى. ٢٠٠٩م. الإعجاز التأثري للقرآن الكريم وأثره في الدعوة إلى الله تعالى. القاهرة: شركة أجيالنا. ط ١. ص ٣٩.

وسهولته على اللسان ووقوعه في النفس موقع القبول، وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب، والتمكين في النفوس ما يذهل ويهيج ويقلق، ويفرح ويؤنس ويضحك ويبكي ويحزن ويفرح... وله مسالك في النفوس لطيفة ومدخل إلى القلوب دقيقة"^١

٣. عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧٣هـ).

رائد في علوم البلاغة القرآنية، ولعل أهم كتبه في هذا المجال هو "دلائل الإعجاز". ومن تأثر بفكر الخطابي خلفه عبد القاهر الجرجاني الذي جعل الأثر النفسي للقرآن أساساً من أسس نظريته في كتبه. حتى قال بعض العلماء "إن مما يتميز به الإمام الخطابي أنه أبرز وجهاً للإعجاز وهو الأثر النفسي، وأصبح هذا الرأي أساساً من أسس نظرية الجرجاني في النظم في كتبه وكتب بعض المعاصرين في الأدب"^٢. ومن أشار كذلك من المتقدمين القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) إذ قال: (ومنها الروعة التي تلحق سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعزيهم عند تلاوته لقوة حاله وإنافة خطره وهي على المكذبين به أعظم حتى كانوا ليستقلون سماعه ويزيدهم نفوراً)^٣.

٤. ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ).

لقد تحدث الإمام ابن القيم عن التأثير القرآني في نفوس من يسمعه أو يقرأه، وذلك في أول كتابه الفوائد: (إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه فإنه خطاب معه لك على لسان رسوله)^٤.

^١ الباقلائي، محمد بن الطيب بن محمد جعفر القاسم. إعجاز القرآن. بيروت: دار الفكر. ص ١٩٢.

^٢ بركات، محمد. د.ت. إعجاز القرآن الكريم. د.م: المكتبة الدولية مؤسسة اخافقين. ص ١٠٨.

^٣ عياض. الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ. ط ١. ج ١. ص ٢٤١.

^٤ ابن قيم الجوزية. الفوائد المشوق إلى علوم القرآن. ط ١. ص ١٥-١٧.

وأنه أقام الإعجاز التأثري للقرآن الكريم على أركان هي في نظره طرق التأثير بالقرآن وهي المؤثر القوي الذي تحدث عنه، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن فهو يعني بالمؤثر القوي القرآن، أدوات التلقي الذي تحدث عنها فقال الحل القابل وهو القلب الحي والشرط هو الإصغاء، والرغبة القوية والملحة من السامع فيما يسمع أو يتلى عليه ويتعلقه جيداً حتى يحصل التأثير القوي^١.

وبعد هذه الجولة حول استعراض الكتب المتعلقة بالإعجاز التأثري، يتبين لنا أن منهم من اكتفى بالحديث عن هذا اللون من الإعجاز دون البحث في تسميته أو في معناه مع وجود إشارات غير مباشرة عن هذا الموضوع، وكان ذلك عند بعض المتقدمين منهم. وأما المتأخرون فمنهم من أطلق عليه روعة القرآن، هيبه القرآن، تأثير القرآن وسحره، ومنهم من أطلق عليه اسم الإعجاز التأثري، ومنهم من أطلق عليه اسم الإعجاز النفسي. وأياً ما كان الاسم فإن المراد به التأثير العظيم الذي يحدثه القرآن الكريم في نفوس قارئيه وسامعيه.

ثالثاً: مرحلة ظهور الاكتشافات العلمية للإعجاز التأثري (في القرن الحالي)

اقتضت المعجزة الإلهية أن تكون مناسبة للزمن التي مجتوت فيه ومسايرة لأفهام الناس ومواكبة لعقولهم وذلك حتى يتم التحدي بها. قال تعالى: ﴿سُورَتِهِمْ عَلَيْنَا فِي الْأَقَاكِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (القرآن. فصلت ٤١: ٥٢).

^١ خليل، مصطفى السعيد مصطفى. الإعجاز التأثري للقرآن الكريم وأثره في الدعوة إلى الله تعالى. ص ٤٨.

وقد تعددت التجارب التي قام به بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين في محاولة لإثبات أثر القرآن الكريم في شتى المجالات. وقد كانت نتائج هذه الدراسات مذهلة بشكل واضح. ومن هذه الأبحاث العلمية التي أجريت في هذا المجال كما يلي:

١. ما قام به الدكتور أحمد القاضي^١، رئيس مجلس إدارة معهد الطب الإسلامي للتعليم والبحوث في أمريكا، ومستشار عيادة (بنما سيتي) بولاية فلوريدا الأمريكية من تجارب حول تأثير القرآن الكريم على الإنسان فيزيولوجياً ونفسياً على مرحلتين:

المرحلة الأولى: وهدفها إثبات ما إذا كان للقرآن أي أثر على وظائف أعضاء الجسم، وقياس هذا الأثر إن وجد، فكانت النتائج أن ٩٧% ممن أجريت عليهم البحوث سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين، وسواء كان يعرفون اللغة العربية أم لا يعرفونها، ظهرت عليهم تغيرات وظيفية تدل على درجة التوتر العصبي التلقائي، حيث كان للقرآن الكريم أثر مهدئ، تم تسجيله بأحدث أجهزة المراقبة الإلكترونية المزودة بالكمبيوتر لقياس أي تغير في فيزيولوجية الجسم. ومن المعروف أن التوتر يؤدي إلى نقص المناعة في الجسم مما يتسبب في إحداث خلل في التوازن الداخلي الوظيفي للجسم، وبذلك فإن الأثر القرآني المهدئ للتوتر يمكن أن يؤدي إلى تنشيط وظائف المناعة في الجسم لمقاومة الأمراض، أو الشفاء منها.

^١ القاضي، أحمد. ١٩٩٤م. "تأثير القرآن على وظائف الجسم البشري وقياسه بواسطة أجهزة المراقبة الالكترونية". بناما سيتي فلوريدا: عيادات أكبر. أثبت الدكتور القاضي بعد سلسلة من التجارب الدقيقة التي أجراها في (عيادات أكبر) في فلوريدا في الولايات المتحدة الأمريكية: أن مجرد استماع المسلم لآيات من القرآن سواء من المتحدثين بالعربية أو غيرها يأتي بجميع التغيرات الفسيولوجية الدالة على خفض التوتر والقلق ونزول السكينة وزيادة المناعة ضد الأمراض وغيرها من التغيرات. أنظر البدر، مالك. ١٩٨١م. *التفكير من المشاهدة إلى الشهود*. هيرندن: مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي. د.ط. ص ٥٩-٦٠.

المرحلة الثانية: وهدفها معرفة ما إذا كان الأثر المهدئ للتوتر وما يصحبه من تغيرات فيزيولوجية عائدًا فعلاً إلى الكلمات القرآنية في حد ذاتها بغض النظر عما إذا كانت مفهومة لدى السامع أو غير مفهومة، فتم تلاوة آيات قرآنية وقراءات باللغة العربية على متطوعين غير مسلمين، ومن غير الناطقين بالعربية، بحيث تكون مطابقة للقراءات القرآنية من حيث اللفظ والصورة والواقع على الأذن، ولم يكن في استطاعة المتطوعين أن يميزوا بينها لجهلهم باللغة العربية. فكانت النتائج إيجابية كالتالي: نسبة الأثر المهدئ للتوتر للقرآن الكريم على المتطوعين ٥٦% في حين كانت النسبة في القراءات غير القرآنية المقاربة في اللفظ ٥٣%. وقد قدمت هذه النتائج للمؤتمر السنوي السابع عشر للجمعية الطبية في (سانت لويس) بولاية ميسوري^١.

٢. ما قام به مجموعة من الأطباء بحث حول تأثير تلاوة القرآن على الاستجابات الفسيولوجية للأطفال الخدج.

حوالي ١٢٠ طفلاً من الخدج في مستشفى شهيد، طهران من خلال أغسطس إلى سبتمبر ٢٠٠٩. وقد تم اختيار المفحوصين عشوائياً وتم تقسيمهم إلى مجموعتين: المجموعة المعيارية ومجموعة تلاوة القرآن. تبنى النتائج على ملاحظة ثلاثة متغيرات: مستويات تشبع الأكسجين، ومعدل ضربات القلب، ومعدل التنفس. وتسميع تلاوة القرآن الكريم على المفحوصين ٢٠ دقيقة عبر سماعة الرأس في الفترة الصباحية. وكان حجم نطاق ٥٠-٦٠ ديسيبل. لوحظت مجموعتان من الاستجابات الفسيولوجية لمدة ١٠ دقائق قبل وبعد المراقبة، وسجلت النتائج وتحليلها. وأظهرت النتائج التي

^١ طيارة، نادية. ٢٠٠٧م. موسوعة الإعجاز القرآني في العلوم الطب والفلك. الإمارات العربية المتحدة: مكتبة الصفاء.

توصلوا إليها إلى أن متوسط معدل التنفس والقلب انخفض بشكل ملحوظ ومستويات التشبع بالأوكسجين ازداد في مجموعة القرآن بالمقارنة مع المجموعة المعيارية، وهذه التغيرات استمرت ١٠ دقائق بعد التدخل ($P < 0.001$). وكان التغيير يعني من ثلاثة متغيرات في النهاية التدخل وبعد ١٠ دقائق اختلفت اختلافا كبيرا بين المجموعتين ($P < 0.001$).^١

٣. تفاعل الماء مع آيات القرآن

الدراسات التي أثبتتها العالم الياباني (Masaru Emoto) في تجاربه على الماء تبين أن الصوت يؤثر على كل شيء من حوله. فالماء هو المكون الرئيسي للإنسان ولالأرض. فقد اكتشف الياباني ماسارو إيموتو أن الماء يتفاعل مع مشاعر وانفعالات الإنسان، ويستجيب لها. يقول إيموتو: "يتكون أكثر من نصف الكرة الأرضية من ماء أي حوالي ثلاثة أرباع، وكذلك أجسامنا وخلايا أجسامنا حوالي ٧٠% ماء".^٢

وإن من أهم الأبحاث العلمية التي توصل إليها هذا العالم هو أن البلورات المتجمدة للماء هي التي تظهر الطبيعة الحقيقية للماء وذلك بعد تأثره بها حوله. وبما أن ثلاث أرباع جسم الإنسان وخلاياه من الماء، فإن هذا الماء والموجود في خلايا أجسامنا سوف يتأثر بالقرآن الكريم وبالدبذبات الصوتية له وهو كلام الله تعالى.

¹ <http://journals.indexcopernicus.com/abstracted.php?icid=915159> (Maryam Keshavars, Narges Eskandari, Fereshte Jahdi, Hasan Ashaieri, Fatemeh Hoseini, Majid Kalani, *The effect of holly Quran recitation on physiological responses of premature infant*) تاريخ الوصول: ٢٣ نوفمبر ٢٠١١

² Masaru Emoto. 2006. *Water Crystal Healing: Music & Images to Restore Your Well-Being*. Atria. October.

مما تقدم نخلص إلى أن العلماء المسلمين وغيرهم أثبتوا إثباتاً مادياً أن الماء يحس ويشعر كما لو كان كائناً حياً يتغير عند سماعه لكلمات المدح كما يتغير عند سماعه لكلمات الهجاء. وأثبتوا أيضاً أن لسماع كلمات الله وأسمائه طاقة تشفي المريض بأمراض عضوية ونفسية وروحية مما يدعونا للاعتقاد بجلوى العلاج بالماء المقرؤ عليه آيات القرآن، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۚ﴾ أَرَكُضُ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ (سورة ص ٣٨ : ٤١-٤٢)

وهناك أيضاً عدة أبحاث علمية أجريت حول تأثير القرآن على السامع، منها تأثير آيات القرآن بالأمواج الصوتية، تأثير آيات القرآن على موجات المخ، تأثير آيات القرآن لإعادة برمجة معلومات الخلايا، و تفاعل الماء مع آيات القرآن وغيرها^١.

المبحث الرابع: أهمية الإعجاز التأثري ومكانته بين وجوه الإعجاز الأخرى
أوردنا سابقاً مفهوم إعجاز القرآن لغة واصطلاحاً، ثم تعريف الإعجاز التأثري وأدلته من النصوص القرآنية والسيرة النبوية، ولحظة تاريخية عن الإعجاز التأثري وأدواته. وفي هذا المبحث سوف نتناول الباحثة أهمية الإعجاز التأثري ومكانته بين وجوه الإعجاز الأخرى.

المطلب الأول: أهمية الإعجاز التأثري بين وجوه الإعجاز الأخرى
للقرآن الكريم وجوه إعجاز أخرى، غير أنها لا تصل في قدرها وأهميتها إلى الإعجاز التأثري للقرآن الكريم في نفس الإنسان حتى اعتبر العلماء الإعجاز التأثري، وجعلوه وجهاً مقدماً على

^١ البناء. الطاقة الشفائية في القرآن الكريم لعلاج كافة الأمراض الروحية والعضوية. ط ٢. ص ٣٦-٤٦.

وجوه الإعجاز جميعاً. وهو موضع عناية علماء المسلمين منذ زمن قديم. وكانت تعابيرهم عن الإعجاز التأثري تدل على أهميته ومكانته على سائر وجوه الإعجاز الأخرى ومر ذكرها في تعريف الإعجاز التأثري. وقد تعددت أهمية الإعجاز التأثري ومكانته بين وجوه الإعجاز الأخرى بعدة حيثيات، منها:

أولاً: تأثيره كامن في شيء فوق المعاني

ولعلنا نتساءل: أين يكمن السر في تأثير القرآن الكريم في نفوس البشر؟ أفي معانيه؟ أم في شيء فوق ذلك؟ إن كانت معانيه، فممكن تعليل أثره في الطفل الصغير، والجاهل غير العارف بقواعد اللغة وموامينها، وغير الناطق بالعربية؟

يقول الدكتور عبد الكريم الخطيب عن تأثير القرآن: "وهذا الوجه من وجوه الإعجاز هو المعجزة القائمة في القرآن أبداً، الحاضرة في كل حين، وهي التي تسع الناس جميعاً، عالمهم وجاهلهم، عريبهم وأعجميهم، إنسهم وجنهم".^١

فالقرآن أثره كامن في شيء فوق المعاني، في تلك الروحية التي حدثنا عنها القرآن. وتحدث عنها محمد فريد وجدي فقال في هذا الوجه من أوجه الإعجاز: "إن للقرآن فوق البلاغة والعذوبة والحكمة والبيان روحانية يدركها من لا حظ له في فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة، ألا ترى إلى الطفل والعامي كيف يعتريهما تهيّب عند تلاوته ولو بصوت حمن حتى إنهما

^١ الخطيب، عبد الكريم. إعجاز القرآن. ط ١. ج ١. ص ٦٧-٦٨

ليكادان يفرقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن، فيما لو أراد التالي أن يغشهما، روحانية تظهر للعارف باللغة وللجاهل بما^١.

ويقول الشيخ سيد قطب عن تأثير القرآن الكريم: "إن في هذا القرآن، سرّاً يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها. إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هناك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن يدركه بعض الناس واضحاً، ويدركه بعض الناس غامضاً ولكنه على كل حال موجود هذا العنصر الذي ينسكب في الحس يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهى هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود؟ ذلك سر مودع في كل نص قرآني، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداءً ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله^٢.

والحقيقة التي لا يمكن أن تنكر: أن هذا القرآن له سلطان على الفطرة الإنسانية وسره الخاص في التأثير عليها بمجرد تلاوته أو حتى بمجرد سماعه. ما من قال للقرآن إلا وهو يشعر أن شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، تؤثر في النفس وتستولي على المشاعر والأحاسيس.

^١ وحدي، محمد فريد. د.ت. دائرة المعارف القرن العشرين: الرابع عشر-العشرين. بيروت: دار الفكر. د.ط. ج ٧. ص ٦٧٩.

^٢ قطب، سيد. في ظلال القرآن. ط ١٠. ج ٥. ص ٣٣٩٩.

ثانياً: من حيث كونه مستقلاً بذاته كباقي وجوه الإعجاز الأخرى

لقد أوردنا سابقاً بأن القرآن الكريم له تأثير على المخلوقات كلها في العالم سواء أكان من الإنس والجن، بل يتعدى تأثيره على الجمادات والنباتات. وهذا التأثير أيضاً يظهر للعارف باللغة وللجاهل بها وللطفل الصغير، بل وغير العربي بل ظهر أثره على غير المسلمين أيضاً.

وقد تبانت آراء العلماء حول هذا الوجه، فمنهم من قال إن الإعجاز التأثري لا يعد وجهاً مستقلاً بذاته، وإنما هو تبع لغيره من وجوه الإعجاز الأخرى، كالإعجاز البياني، أو البلاغي، أو التشريعي أو العلمي. ومن القائلين بهذا الرأي: القاضي أبو بكر الباقلاني، والجرجاني، والدكتور فضل حسن عباس. لقد ذكر الدكتور فضل حسن عباس هذا الكلام في مناقشة هذا الوجه ويقول: " فالإعجاز الروحي (التأثري) - إذن - إن أردنا أن نعهده وجهاً من وجوه الإعجاز فهو ناشئ عن الصبغة البيانية السامية والأسلوب الرفيع والنظم البديع"^١.

وآخرون اعترفوا بوجود الإعجاز التأثري في النفوس، وأنه وجه مستقل قائم بذاته كباقي وجوه الإعجاز الأخرى حيث أشار القرآن في كثير من الآيات إلى تأثيره في النفوس، فمنهم الخطابي، والسيوطي، ومحمد فريد وجدي، وسيد قطب، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ محمد متولي الشعراوي، والدكتور عبد الكريم الخطيب، والدكتور صلاح الخالدي، قال الخطابي: " قلت في إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من أحمادهم، وذلك صنيعة بالقلوب وتأثيره في النفوس..."^٢. ويقول الدكتور عبد الكريم الخطيب عندما يبين مزايا هذا الوجه

^١ عباس، فضل حسن. إعجاز القرآن الكريم. ص ٣٤٤-٣٤٥.

^٢ الخطابي. بيان إعجاز القرآن. ص ٩٢-٩٣.

دون سواه، "فهذا الوجه يمتاز عن سائر وجوه الإعجاز بأنه المعجزة القائمة في كل حين، وهي التي تسع الناس جميعاً عالمهم وجاهلهم، عريبهم وعجميهم، إنسهم وجنهم".^١

وبعد هذا العرض، ترجح الباحثة رأي القائلين بأن الإعجاز التأثري مستقلاً بذاته كباقي وجوه الإعجاز الأخرى. كما نرى تأثير الأطفال وعوام الناس عند سماعهم للقرآن الكريم، وتأثر غير الناطقين باللغة العربية، بل يتعدى تأثيره إلى الجبال، والجمادات، والنباتات. تلك هي مكانة الإعجاز التأثري، وإن كان للقرآن الكريم وجوه إعجاز أخرى غير أنها لا تصل في قدرها وأهميتها إلى الإعجاز التأثري للقرآن الكريم. وترجح الباحثة هذا الرأي لعدة أسباب، منها:

- نصوص صريحة من القرآن الكريم عن مظاهر التأثير القرآني من المؤمنين والكافرين والجمادات. منها قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (سورة الأنفال ٨: ٢)، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (سورة الزمر ٣٩: ٢٣). قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَكْفِلُونَ ﴾ (سورة فصلت ٤١: ٢٦). وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَن قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ السَّمَوَاتُ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ (سورة الرعد ١٣: ٣١).

- السيرة النبوية والأحداث التاريخية. وقد تمثل ذلك في إسلام عمر الخطاب، والطفيل بن عمرو الدوسي، وأبي ذر الغفاري وغيرهم وقد سبق ذكره في مظاهر الإعجاز التأثري من

^١ الخطيب. إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها. ص ٢٣٦-٢٣٧.

السنة النبوية. وسجل التاريخ أثراً لإعجاز التأثري على وجه الوليد بن المغيرة الذي لم

يؤمن بالقرآن، إلا أنه لما سمعه تغير وجهه، ونطق لسانه بما حفظه عنه التاريخ ووعاه.

- ومن العلماء من اختار الإعجاز التأثري كأهم وجه من وجوه الإعجاز، كالإمام الخطابي

وذلك بتأصيله هذا الوجه من وجوه الإعجاز (الإعجاز التأثري) بأدلة قرآنية، ومواقف

من السيرة النبوية^١. وتأثر عبد القاهر الجرجاني بسلفه الخطابي في نظريته لإعجاز القرآن.

وتعرض لهذا الكلام الدكتور محمد بركات في كتابه (في إعجاز القرآن) حيث قال: "مما

تميز به الخطابي: أنه أبرز وجهاً للإعجاز، وهو الأثر النفسي، وأصبح هذا الرأي أساساً

من أسس نظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم في كتبه وكتب بعض المعاصرين في

الأدب^٢. وكذلك كلام الدكتور عبد الكريم الخطيب الذي سبق لنا ذكره، وقد وقف

أمام وجه الإعجاز التأثري للقرآن وقفات دقيقة، نكاد نجزم من خلالها أنه يرجحه على

سائر وجوه الإعجاز الأخرى.

ويعقب الدكتور الخطيب على ما قاله القاضي عياض عن الإعجاز التأثري بقوله: "وهذا

الوجه - في رأينا- عمدة وجوه الإعجاز في القرآن، فالروعة التي تلحق قلوب سامعيه

عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته هي منال إعجازه، وهي المعجزة القائمة أبد

الدهر، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، وكما يكون ذلك من حديثنا في إعجاز القرآن بعد

^١ مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية. ١٩٩٨م. السنة: ١٣، العدد: ٣٦، مقالة: الإعجاز التأثري للقرآن الكريم. دراسة

تاريخية وتطبيقية من القرآن والسيرة النبوية، د. محمد عطا أحمد يوسف، ص ٢٦-٢٨. (بتصرف)

^٢ بركات، محمد. ١٤٠٣هـ. في إعجاز القرآن. مؤسسة الخافقين: المكتبة الدولية. ص ١٠٨.

هذا إن شاء الله، وقد رأيت أن القاضي عياض قد جعل هذا الوجه حاشية في وجوه الإعجاز. وهو الوجه الذي من حقه- في رأينا- أن يكون وجه الإعجاز وحده"^١.

ويقول الدكتور الخطيب تعقياً على كلام ابن عطية عن وجوه الإعجاز: "وهذا هو سر الإعجاز وعظمته، كلمات هن من كلام الناس، ثم يفعلن هذا الأمر العجيب في النفوس، ويقمن هذا السلطان القاهر على القلوب"^٢.

ويتفق الدكتور الخطيب على قول السكاكي الذي سبق لنا ذكره (اعلم أن الإعجاز يدرك، ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن...) بقوله: "وما يقول السكاكي عن إعجاز القرآن- هنا- هو مقطع القول كله في هذا الأمر، إذ ليس الإعجاز الذي رآه الناس إلا روعة تملكهم، وإلا جلالاً يحيط بهم، وما كان لكلام أن يصور حقيقة الروعة، أو يمسك مواقع الجلال، إنها معان تترك، وتستشعر، ولا توصف! ولهذا فإن الناس من القرآن الكريم على منازل ودرجات وحظوظ، كل ينال منه بقدر ما عنده من استعداد للتجاوب العقلي والروحي والنفسي معه."^٣

وتلك الأسباب توضح لنا أن الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم هو وجه مستقل قائم بذاته كباقي وجوه الإعجاز الأخرى بل أهمها وأولها بدليل أن آيات القرآن الكريم والأحاديث

^١ الخطيب. إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها. ص ٢٩١-٢٩٢.

^٢ المرجع نفسه. ص ٢٩٥

^٣ المرجع نفسه. ص ٣٣٣.

النبوية الشريفة ومواقف الصحابة بل وما في واقع الحياة البشرية في عصرنا الحالي وكل ما ذكره العلماء تثبت وترصد مظاهر هذا الوجه من وجوه الإعجاز في حياة البشر.

ثالثاً: من حيث كونه شفاء وعلاجاً للأمراض

يتعدى الإعجاز التأثري للقرآن الكريم إلى مجال الشفاء، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يونس ١٠: ٥٧). فالقرآن هو موعظة وشفاء وهدى ورحمة للمؤمنين. الموعظة القرآنية تولد الشفاء للصدر والقضاء على ما في هذه الصدور من أمراض وأدناس وأرجاس ليعود لها نورها وتعمل فطرتهما المؤمنة التي فطر الله الناس عليها. والقرآن قادر - بإذن الله - على أن يشفي الصدور والقلوب من مختلف أمراضها المادية والنفسية، أمراض الشبهات والشهوات، وأمراض الهوى والانحراف، وأمراض الشك والشكوك وأمراض القلوب والنفوس، والجوارح والحواس، وأمراض السياسة، والاقتصاد، والأخلاق، والاجتماع، وحياة الحضارة.

بهذا المفهوم الموسع الشامل يجب أن ننظر للشفاء القرآني، وأن نتناوله بهذه السعة والإحاطة وصدق الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (سورة الإسراء ١٧: ٨٢). ومما يلفت النظر في الآية أنها جعلت الموعظة القرآنية والشفاء القرآني للناس جميعاً، بينما خصصت الهدى والرحمة للمؤمنين وقصرتهما عليهم مما يجعل الإيمان شرطاً للهدى والرحمة^١.

^١ الخالدي، صلاح عبد الفتاح. ١٩٨٥م. مفاتيح للتعامل مع القرآن. الأردن: مكتبة المنار. ط ١. ص ٢٨-٢٩.

رابعاً: من حيث شعور النفس بالاطمئنان

وهي متعة ناشئة من ذلك النعم الذي يلبي رغبات النفس ويشبع متاعها. فتكرار تلاوته لا يزيد النفس إلا طلباً له. وهذه خاصية تكمن فيه ويدل على تأثيره في الآخرين. فعلى الرغم من تلاوته وتكرارها أن هذه النفس لا تمله بل تطلب المزيد منه. ننظر في حال المسلمين جميعاً في صلاتهم إذ يقرؤون الفاتحة في كل ركعة من صلاتهم، ولكن هل نجد النفوس تمل تلاوتها أو سماع آياتها؟ كلا بل إن النفوس لتهنو أحياناً لسماعها. وهذا بخلاف كتب البشر فإن أي كتاب تكرر قراءته تجد نفسك تصاب بالملل والسآمة بخلاف القرآن، فإنك كلما كررته ازدادت رغبة فيه، وصدق النبي ﷺ عندما قال عن القرآن، "ولا يخلق عن كثرة الرد".¹

ويختلف التأثير من إنسان لآخر فتأثر وانفعال المؤمنين الموحدين يختلف قطعاً عن تأثر الكافر أو المشرك أو المنافق، كما أن مقياس التأثر عند المؤمنين أنفسهم يختلف من مؤمن لآخر علماً بأن القرآن الكريم قليله وكثيره مؤثر. فقد يتأثر بعضهم بآية تتحدث عن القدرة الإلهية في الكون والحياة وقد يتأثر الآخر بما ذكره الله في حياته من النعيم والجنان وما أعدّه الله للمؤمنين ويتأثر الثالث بآية تتحدث عن النار والجحيم والسعير ويتأثر رابع بالحقائق التاريخية الصادقة وخامس يتأثر بالبلاغة المعجزة والكلمة الرقيقة وسادس يتأثر بالأسس الشرعية المحكمة في مجال الحكم والأسرة والمجتمع وغير ذلك.

¹ حديث أخرجه ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان. د.ت. مصنف ابن أبي شيبة. تحقيق: محمد عوامة. د.م: دار القبة. كتاب: في التمسك بالقرآن. رقم الحديث: ٣٠٦٣٠. ج ١٠. ص ٤٨٢.

وهكذا فالقرآن لا يترك نفساً إلا ويتحدث معها عن ملكة من ملكاتها المتعددة، سواء أكانت فكرية عقلية أم وجدانية عاطفية أم سياسية أم عسكرية إلى غير ذلك، ويأخذ هذا التأثير أشكالاً متباينة أحياناً أو منسقة أحياناً أخرى، فتأثر المشركين والكافرين غالباً نفوراً وإعراضاً، أو إلقاء للحجج الوهمية التي يقصدون بها التعجيز لقارئه أو التيل من النص القرآني نفسه كما نرى عند اليهود والمنافقين ومن شاكلهم.

هذا وقد تحدث الله تعالى عن مظاهر التأثير القرآني على النفس البشرية مبيناً أن أعظم الأشياء في الكون وأقلها تتأثر به قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ يُضَرِّبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الحشر ٥٩ : ٢١)، فالله تعالى ضرب هذا المثل ليبين أن أشد الأشياء صلابة من المخلوقات تتأثر بما يقرعه القرآن بينما الكفار والمشركون لا يتأثرون بالتأثير الإيجابي بالقرآن وهذا دليل على شدة قساوة قلوبهم وكبر جحودهم وعنادهم.

خامساً: محاربته الملل وخروجه من إلف النفس
حين نقبل على كتاب الله ونتلو بعضاً من آياته نجد أن شيئاً ما يجذبنا إليه على الرغم من أننا قد نقرأ الآيات نفسها مرات ومرات إلا أننا نجد جليداً في كل مرة نقرأها. فعلى الرغم من أن طبيعة النفس الإنسانية إذا ألفت الشيء خفي عليها أسرارها وصرفها هذا الإلف عن التفكير فيه ثم اكتشاف ما فيه، إذ النفس مجبولة على هذا، إلا أن شأن النفس مع القرآن غير هذا. فهي إن

أقبلت عليه تلاوة أو سماعاً تجد أن شيئاً ما يجذبها إلى سماعه، فالطبيعة القرآنية تقهر برودة الإلف وطول المعرفة، فهو على ما قيل: "تغلب على مشاعر الملل فيه واحدة بنشاط لا ينفد".

سادساً: اتخاذ وسيلة من وسائل الدعوة إلى الإسلام

القرآن الكريم هو السلاح الأول الذي استخدمه النبي ﷺ في دعوته. وبالفعل قام الرسول ﷺ يدعو بهذا السلاح القوي الذي لا تملك القلوب معه إلا أن تسلم، والأفئدة إلا أن تتأثر، والآذان إلا أن تنصت وتصغي، والعقول إلا أن تفكر وتتدبر. وهذا كله كان له أكبر الأثر في أن يدخل كثير من المشركين في الإسلام. ومن ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة التوبة ٩: ٦). والمعجزة لا بد لها من أثر في من تعجزه إما تصديقاً أو تكذيباً. كذلك ما ورد في كتب السيرة والتفسير وأغلب الكتب التي تتناول قضية الإعجاز عن لجوء رسول الله ﷺ للإعجاز التأثري كوسيلة أساسية من أسس الدعوة للإسلام وظهور أثر هذه الوسيلة الفعال في كل من استعملت معه، إما قبولاً واعتناقاً للإسلام أو نفوراً وإعراضاً عنه أو إقراراً لإعجاز القرآن في حالته.^٢

وتحكي الروايات أن بعض الكفار كان يختلف سراً إلى بيت النبي ﷺ ليلاً ليستمع إلى القرآن كما سبق بيانها في حديث تأثير القرآن الكريم على الكافرين ومظاهره. وقد حكى القرآن أن المشركين كانوا يتواصون فيما بينهم بعدم سماع القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا

^١ الغزالي. نظرات في القرآن. ص ١٢٧.

^٢ القضاة، خالد محمد. الإعجاز التأثري للقرآن الكريم. بحث مقدم إلى مؤتمر كلية الشريعة السابع: إعجاز القرآن. ص ٩.

الْقُرْآنَ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ (سورة فصلت ٤١: ٢٦). وما ذلك إلا خوفاً من تأثرهم بالقرآن الكريم.

إن الإعجاز التأثري في عصر النبي ﷺ يتمثل في الممارسة والسلوك العملي للإعجاز نفسه دون التأليف فيه أو وضع قواعد أو أصول له. وقد سجلت السيرة النبوية كيف وصلت الرسالة الجديدة إلى المدينة المنورة على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه حيث مكث يقرأ القرآن على أهلها فآمنوا ودعوا رسول الله ﷺ إلى الهجرة حتى قيل: "فُتحت الأمصار بالسيوف، وُفُتحت المدينة بالقرآن"^١. فقد كان القرآن الكريم هو السلاح الحاسم في تحويل أهل المدينة -خزرجهم وأوسهم- من الشرك والوثنية إلى الإسلام والقرآن.

ففي بيعة العقبة الأولى دار هذا الحوار بين الرسول ﷺ ونفر من خزرج المدينة، قال ﷺ: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال: من موالى اليهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن^٢، فآمنوا وصدقوا. فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين فكان يسمى المقرئ بالمدينة: مصعب^٣.

^١ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. د.ت. الإتقان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

القاهرة: مكتبة المشهد الحسيني، ج ٢، ص ١٢٣.

^٢ ابن هشام. السيرة النبوية. ج ١. ص ٤٣٤.

^٣ المرجع السابق، ج ١. ص ٤٣٤.

وقصة مصعب بن عمير وعبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنهما حين أرسلهما الرسول ﷺ إلى المدينة يعلمان الناس القرآن، فنزلا عند أسعد بن زرارة، فأغضب هذا سعد بن معاذ-سيد الأوس- رضي الله عنه قبل إسلامه، حتى قال لابن أخيه أسيد بن حضير ألا تذهب إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا فتزجرهما، فلما انتهى إليهما أسيد هدهما وقال: اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة. فأجابه مصعب رضي الله عنه: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً فقبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره، ثم قرأ مصعب القرآن، وأسيد يسمع. فما قام من مجلسه حتى أسلم، ثم كرّ راجعاً إلى سعد قال له: والله ما رأيت بالرجلين بأساً فغضب سعد وذهب ثائلاً مهتاجاً فاستقبله مصعب بما استقبل به أسيد فأسلم من فوره^١.

أما في العصور المتأخرة فالأمثلة والشواهد على ذلك لا حصر لها ولا عدّ، إذ كثيراً ما نسمع الصحف والمجلات تتناول أخباراً تؤكد هذه الحقيقة. فقد سمعنا عن أثر القرآن في نفوس غير المسلمين بمجرد سماعهم لآياته دون وقوف على ألفاظه فضلاً عن فهم معانيه. فدوي صوت قاريء القرآن يترك هذا الأثر في النفوس^٢. منها حادثة يرويها لها أحد الكتاب الإسلاميين عندما التقى بأحد المشاركين في دورة متقدمة في علم الراجعة العصبية اللغوية وهو من الجنسية الأمريكية ودار حوار طويل بينهما حول الإسلام والقرآن. وكان مما دار بينهما: "حيث إنك لم تسمع تلاوة القرآن، هل تمنع أن أقرأ عليك من الآيات القرآنية، فنحن المسلمون نؤمن أن للقرآن أثراً في النفس عند تلاوته، فالقرآن عندنا معاني وكلمات وصوت مؤثراً!. فقال: إنني متحمس لهذه التجربة.. ليس لدي مانع!! بدأت بقراءة آية الكرسي وآية بعدها بما لدي من مهارات في

^١ ابن كثير، السيرة النبوية. ج ٢. ص ١٨٢

^٢ الجيوسي. ٢٠٠٦م. مجلة الفرقان. النفس والقرآن: الأثر النفسي ومكانه من الإعجاز. العدد: ٥٢. ص ١٩.

التجويد والترتيل تعلمتها من شيخ في مسجد الهاجري الشيخ عبد السلام حبوس -حفظه الله- وأثناء التلاوة لاحظت التالي: بدأ هذا الإنسان الذي كان جالساً باستقامة على الكرسي بالانحناء قليلاً.. قليلاً.. بعد لحظات أغمض عينيه.. تغيرت ملامح وجهه إلى الهدوء والخشوع والخضوع أحسست وأنا أقرأ القرآن على هذا الإنسان وكأني أقرؤه على مسلم من حيث تأثره السريع بالقراءة، مما أعطاني راحة نفسية كبيرة وسعادة لا توصف، وبعد انتهيت من القراءة.. جلسنا في صمت ثم فتح عينيه، وإذا العينان حمراوتان وبدأت الدموع تترقق والانشرح باد على وجهه وهو يقول: لقد عزلتني بتلاوتك الجميلة عن هذا العالم الذي نعيشه، إن لهذه الكلمات تأثيراً غريباً على نفسي.. بعد حديث طويل طلبت منه أن يدون المعاني التي شعر بها فكتب بخط يده: "إن مقلدتك من القرآن، كانت ولا زالت ذات أثر عظيم في نفسي، ولسوف أحمل تعابيرك الجميلة معي أبداً، سأحاول أن أعبر بكلماتي عن تجربتي لكلمات الرب، كانت البداية تقريباً حزينة وكئيبة، لقد شعرت كأني منفصل من جزء هام من نفسي، ومن الحياة.."¹.

سابعاً: من حيث إقبال الناس وانكبابهم على القرآن سواء بالبحث أو بتدعيم أبحاثهم إقبال الناس وانكبابهم على القرآن سواء بالبحث أو بتدعيم أبحاثهم دليل وإشارة إلى أثر القرآن هذا، فلو قمنا بعملية إحصاء لما كتب حول القرآن من الدراسات المتعلقة بعلومه لما خالجنا شك في أن هذا الميدان هو أكثر ميادين العلوم التي كتب فيها على الإطلاق، وما ذلك إلا شهادة من نفس - سواء أكانت مؤمنة بالقرآن أم لا - بأن لها سرّاً وأثراً في النفس، ولقد لمسنا جهوداً تبذل في التأليف حول هذا الميدان عند أعداء المسلمين فضلاً عنها عند المسلمين.²

¹ مجلة المجتمع. ١٩٩٦م. نجيب، الرفاعي. أثر القرآن على قلوب الأمريكان. الكويت: د.ن. العدد ١٢٠. ص ٥٨.

² الجيوسي، عبد الله. الأثر النفسي ومكانته من الإعجاز. ص ٢٠.

من ذلك كثرة الدراسات التي قام بها خصوم الإسلام حول القرآن الكريم والتي غصت بها مكتبات المسلمين، تشير إلى أثر هذا القرآن الكريم فيه مما جعلهم يصرفون أغلب جهودهم في التأليف حول القرآن الكريم بشكل عام، ثم إلى أثر القرآن الكريم ودوره في التأثير على النفوس. فعلى سبيل المثال: دراسة التي قامت بها المؤلفة الإنجليزية كريستينا نلسون (Kristina Nelson) للبحث عن موسيقية القرآن. ولاحظت أن القرآن له تأثير انفعالي نفسي مع أنها غير مسلمة. الفصول الأربعة الأولى فتقدم مادة عن القرآن الكريم نفسه، والأحكام المنظمة لقراءته الصحيحة (التجويد)، والمسائل المطروحة على بساط البحث، ودلالات جدل السماع، والمصطلحات الفنية، والقضايا الخلافية التي تحدد القراءة المثالية وفق معني القرآن وطبيعة دوره في المجتمع المسلم. وتقدم الفصول الثلاثة التالية الممارسة الحالية لقراءة القرآن في مصر من خلال معطيات مستقاة من أنشطة في المجال العملي، كالمقابلات الشخصية التي قامت بها المؤلفة، ومشاركتها فيها، وملاحظاتها لها¹.

وتتناول هذه الفصول الطرق التي يجسد بها الصوت المثل العليا وحقائق قراءة القرآن الكريم، والأحكام المنظمة لقراءته الجميلة (جماليات القراءة)، وكيف تتم المحافظة على المثل الأعلى في التطبيق، وعلى ديناميات الإحساس والاستجابة التي هي من أقوى الخصائص المميزة للعرف المصري. وتقول المؤلفة: "إن معظم مادة المصدر الخاصة بهذه الدراسة، تأتي من عمل ميداني لمدة عام كامل، أجري في القاهرة، مصر (١٩٧٧ ٧٨). وبسبب تنوع الأجواء الكثيرة التي تتم قراءة القرآن فيها، والأدوار المختلفة التي قمت بها في أثناء بحثي، انهمكت في مجموعة من الأنشطة.

¹ Nelson, Kristina. 2002. *The Art of Reciting The Qur'an*. Egypt: The American University in Cairo Press.

2nd edition. Page xvii.

وقد استقبلت في كل هذه الأدوار بالحماسة وتقدير العون. وأذكر هذا متسائلة بالحثم، كيف أنا امرأة غير مسلمة، وغير مصرية، استطعت إجراء هذا البحث. وكوني أجنبية حررتي من عبء ما يتوقع لامرأة مصرية، وكان الناس مسرورين بمجال اهتمامي، وتثير جدته فضولهم. وقد قبلت في المقام الأول على أساس صدق نياي تجاه قراءة القرآن الكريم، واحترامي للمثل الدينية الأساسية العليا لذلك التراث، وتقديري الوجداني للمعنى نفسه. وكان الاهتمام المواكب للمشروع واضحاً في الكيفية التي انتشرت بها أخباره بسرعة وإيجابية بالكلمة الشفهية، وبوسائل الإعلام، وتوالي عروض تقديم المساعدة لي من كل أنحاء مصر¹.

تلك هي مكانة الإعجاز التأثري للقرآن الكريم، له سلطان على الفطرة الإنسانية وسره الخاص في التأثير عليها بمجده تلاوته أو حتى بمجرد سماعه. ما من تال للقرآن إلا وهو يشعر أن شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير. فبهذا الفهم المتذوق، وبذلك المعرفة المستبصرة، يمكن أن نتعامل مع القرآن الكريم، وأن نلتفت بما فيه من هدى وشفاء ورحمة.

المطلب الثاني: قدسية وإيقاعية ألفاظ القرآن وأثرها النفسي

القرآن الكريم وصل إلينا من طريقين: صوتي منطوق، ورسمي مكتوب بطريقة التلقي والمشافهة بالكيفية المتلقاة من النبي ﷺ، التي لقنها صحابته رضي الله عنهم، فلقنوها من بعدهم إلى عصرنا هذا. وتفتخر الأمة الإسلامية على جميع أمم الأرض بهذا النقل الصوتي للقرآن المجيد. هناك مؤثرات سمعية انطباعية ذات وقع تأثيري على الوجدان، تدركها المعرفة ولا تحيط بها الصفة، أي

¹ Nelson, Kristina. 2002. *The Art of Reciting The Qur'an*. Egypt: The American University in Cairo Press. 2nd edition. Page xvii.

لا يعرف مصدر تأثيرها. وهذه المؤثرات هي التي استعملها القرآن، وهي أحد أسباب رشاقة الأسلوب وارتياح النفس، وشفاء الأمراض وورحة للمؤمنين.

أولاً: مفهوم الإيقاعي وصلاحيه الإطلاق

الإيقاع من الثلاثي (وقع)، يقال: وقع الشيء يقع وقوعاً: سقط، ووقع الحق: ثبت، ووقع الشيء: موقعه. والوقعة: صدمة الحرب، والوقعة: الغيبة، والوقع: وقعة الضرب بالشيء، ومواقع الغيث مساقطه^١، ووقع الحق: ثبوته، ووقع القول حصول متضمنة^٢. والإيقاع: يقال في الإسقاط وفي شن الحرب، يهمننا ما تقدم لفظ الإيقاع: إيقاع ألحان الغناء، وهو أن يوقع الألحان ويبينها^٣.

نكتفي بما تقدم لنخلص إلى أن أبرز ما في الإيقاع هو ثبوت الشيء وبقاء أثره. وبهذا نلمس أن مصطلح الإيقاع يفي بالعناصر المكونة للخطاب والتفاعلة معه، فجمالية النص لا تقتصر على الجمالية الذاتية، بل إنها تكتنز قيمة يتوقعها المتلقي فيجدها فيه وهذا- بلا شك- لا يتوافر في مصطلح الموسيقى^٤. ومن هنا فإن الباحثة تؤكد على ضرورة استخدام مصطلح الإيقاع في الدراسات المعنية، مع أن المصطلح الشائع هو موسيقى القرآن. وأياً ما كانت التسمية وهذا الاختلاف في صحة إطلاق المصطلح فقط، ولا فنكر ما لهذا القرآن من خاصية الجذب.

^١ الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. ١٩٩٥م. مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون. د.ط. ٣٠٥.

^٢ الأصفهاني، الراغب. معجم المفردات لألفاظ القرآن. ص ٤١١-٤١٢.

^٣ الفيروز آبادي. القاموس المحيط. ج ١. ص ٩٩٨.

^٤ الجيوسي، عبد الله محمد. ٢٠٠٦م. التعبير القرآني والدلالة النفسية. دمشق: دار الغوثاني للدراسات القرآنية. ط ١. ص ١٤٠.

مفهوم الموسيقى

مفهوم الموسيقى مفهوم واسع الدلالة^١. شاع استخدام مصطلح الموسيقى عند الأدباء والشعراء، ويعنون به لغة العواطف والوجدان. إذ هي تؤثر في العواطف لما في نفحاتها وإيقاعها من جمال، وما ينشأ عنها من أثر في النفوس، ويرجع استخدام الأدباء لهذه اللفظة لما بين الأدب والموسيقى من قدر مشترك. فالموسيقى تستعمل أصواتاً لا معنى لها كمادة أولية، والأدب يستعمل أصواتاً مليئة بالمعاني هي الألفاظ. فهو يشمل الشعر ويشمل قراءة القرآن ويشمل الآذان، ويشمل حلقات الذكر وغير ذلك مما يطلق عليه تجويزاً "الموسيقى الدينية". أياً ما كانت التسمية في هذا الاختلاف في صحة إطلاق المصطلح في جناب القرآن فإنه ليس بمقدور أحد من البشر أن ينكر ما لهذا القرآن من خاصية الجذب، يذكر أن أعداء الإسلام وخصومه ممن يؤكد حضور هذا المعيار الموسيقي لألفاظ القرآن فضلاً عما يشهد به المسلمون أنفسهم^٢.

^١ والحق أن هذه الكلمة ليس لها أصل عربي، وإنما هي من الألفاظ اليونانية. وقد قيل في أصلها الاشتقاقي: إنها مؤلفة من المقطعين الآتين: "موسى" و"قي"، فلفظة (موسى) في اليونانية تعني النغمات. ولفظة (قي) بمعنى الموزون الملذ. ومنه قيل إن معناها: العلم بكيفية تأليف المعنى اللغوي لهذا اللفظ. أنظر: اللاذقي، محمد بن عبد الحميد. ١٩٨٦م. الرسالة الفتحية في الموسيقى. تحقيق: هاشم محمد الرجب. الكويت: د.ن. ط ١. ص ٤٧.

^٢ الجيوسي، عبد الله محمد. التعبير القرآني والدلالة النفسية. ص ١٣٩-١٤١.

Jozef Marcin Pacholczyk. *Regulative principles in the Koran chant of Shaikh 'Abdu'l-Bāsīt 'Abdu's-Šamad*. Thesis (Ph. D.) University of California, Los Angeles, 1970.

Nelson, Kristina. 2001. *The Art of Reciting the Qur'an*. USA: University of Texas Press. 157.

Fadlou Shehadi. 1995. *Philosophies of Music in Medieval Islam*. Netherlands: Brill Leiden.

Arberry L: *The Holly Quran*. An Introduction with selection b First Publishiraby. Greeg Allen & Unwin

LTD. London. 11-34. حيث تحدث في المقدمة عن موسيقية القرآن وأطال الحديث عن ذلك.

اللغة والإيقاع والجوانب النفسية

فمادة الصوت هي مظهر الانفعالي النفسي، وهذا الانفعال بطبيعته هو السبب في تنوع الصوت بما يخرج فيه، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها.. وما تحدته العبارة من جرس في الأسماع لم يلبث أن يتعمق بالوجدان ويمتزج بالمشاعر والأحاسيس. فيستجيب العقل والوجدان لداعيتها، ثم لم يلبث أن تصحبها مواقف نفسية متأثرة بها منفصلة لها.. والقرآن يخاطب النفوس البشرية ولكي يصل إلى هذه النفوس المختلفة في ميولها وأمزجتها، فقد اعتمد على عنصر الصوت-الذي هو الانفعال النفسي.^١

وقد أشار قدماء الفلاسفة إلى أن الصوت الحسن يجري في الجسم مجرى الدم في العروق، فيصفو له الدم، وتنمو له النفس، ويرتاح له القلب، وتهتز له الجوارح، وتخف له الحركات، وقديماً نقل على لسان أفلاطون: "لا ينبغي أن نمنع النفس من معاشقة بعضها بعضاً، ألا ترى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملائكة والفتور على أبدانهم ترغوا بالألحان".^٢

هذا التناسق الفني العجيب والإيقاع الرائع الذي تحويه ألفاظ القرآن تميل إليه كل أذن تسمعه، ويزيد من طلب الآذان له كونه مرتلاً بأصوات حسنة، يبتاب الجسد قشعريرة، ويعتري الجلود لين وتشنف له الآذان وتخشع له القلوب، حتى يتحرك اللسان معبراً عن هذا العجب مردداً مع العوام - الله الله - وليس في ذلك من تعليل إلا هذا التناسق الفني العجيب والإيقاع المتوازن الذي

^١ عبد التواب، صلاح الدين محمد. ١٩٩٥م. الصورة الأدبية في القرآن الكريم. القاهرة: دار نوبار للطباعة. ط١. ص٧٤-

٨١.

^٢ الأندلسي، أحمد بن محمد ابن عبد ربه. د.ت. العقد الفريد. تحقيق: محمد سعيد العريان. بيروت: دار الفكر. د.ط.

ج٣. ص١٧٧.

امتاز به نغم القرآن. تلك المجانسة الصوتية التي تستريح لها النفس، ويأتي هذا متمشياً مع ما تميل إليه النفس الإنسانية من استعذاب الحديث المتوازن، إذ قد يفهم الإنسان من النغم والإيقاع ما لا يتمكن من فهمه عن طريق الشرح والتفصيل^١.

ثانياً: جوانب موسيقية في القرآن الكريم

١. القيم الصوتية: هي مظهر الانفعالي النفسي

القيم الصوتية في القرآن هي التي تدفع الباحثة، كريستينا نلسون (Kristina Nelson) لبحث عن موسيقية القرآن، ولأحظت أن القرآن له تأثير انفعالي نفسي مع أنها غير مسلمة. وذكرت في مقدمة كتابها أن هناك ثلاثة عناصر يؤدي إلى تأثير موسيقية القرآن على قارئ والسامع في آن واحد، وهي: التجويد، والقراءات، والفهم (علم التفسير)^٢.

وقد ذكر ابن جني في كتابه (الخصائص)^٣ عن علاقة الصوت بالمعنى، ويمكن أن نستنتج من كلامه ما يلي:

١- تكرار الصوت يؤدي إلى تكرار المعنى وتصويبه وتقويته والمبالغة فيه.

^١ أنيس. ١٩٨٨م. موسيقى الشعر. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٦. ص ٩.

^٢ Nelson, Kristina. 2002. *The Art of Reciting The Quran*. Egypt: The American University in Cairo Press. 2nd edition. Page xvii. "Tajwid is the system which codifies the divine language and accent of Qur'anic recitation in terms of rhythm, timbre, sectioning of the text, and phonetics. It is the very basic and identifying marks of the recited Qur'an. Qiraat characterizes the different text-systems in use and codifies the variant applications of the rules of tajwid. Tafsir is concerned with the meanings of the text, that is, exegesis. However, the importance of tafsir to recitation is obvious: the reciter's understanding of the text affects the style and structuring of the recitation. More importantly, however, the clearer and more sensitive the reciter's understanding of the text, the more skillful the evocation of its meanings in the hearts of the listeners"

^٣ ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني. ١٩٥٥م. الخصائص. تحقيق محمد علي النجار. القاهرة: دار الكتب المصرية، د. ط. ج ٢. ص ١٥٢-١٦٤.

٢- إضافة أصوات إلى الأصول إضافة إلى المعنى الأصلي.

٣- ثمة علاقة بين صوت الحرف ومخرجه وبين ما يدل عليه من معنى.

٤- كل صوت في اللفظة قد يعبر عن جزء من المعنى الذي تعبر عنه اللفظة بأصواتها جميعاً.

وأضاف الرافعي: "فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هن الشعور واستثارته من أعماق النفس؛ وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيف والإلحاد، ومن لا يعرفون لله أية في الآفاق ولا في أنفسهم لتلين قلوبهم وتمتز عند سماعه لأن فيهم طبيعة إنسانية، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان، فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان...".^١

ومن هنا نرى أن إعجاز القرآن كامن في موسيقاه اللغوية التي نتجت عن انسجامه واطراد نسقه، واتزانه على أجزاء النفس مقطعاً ومقطعاً، ونبرة نبرة، كأنها توقعه توقيعاً ولا تتلوه تلاوة.^٢

٢. أحكام التجويد وقواعد الإلقاء إسهام في الإيقاع القرآني

قال تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (سورة المزمل ٧٤: ٤)، منذ أن نزلت آياته نغمت تنغيماً ورتلت ترتيلاً، ((إذ كان من طبيعة نسقه الجميل أنه يتواءم مع النغمة ويتساق مع اللحن)).^٣

^١ الرافعي، مصطفى صادق. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. ص ٢١٦.

^٢ الرافعي، مصطفى صادق. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. ص ٢١٢-٢١٩.

ولا شك أن هناك قواعد تتصل بالأداء القرآني لا بد من مراعاتها كأحكام التجويد، وإتقان مخارج الحروف، وتطبيق قواعد الوقف والابتداء، كل هذا يعد من هندسة اللفظ القرآني، ويزيد من تأثيره في النفس إذا اجتمع إلى جانب ذلك صوت حسن، فالتجويد هو (التحسين). بل اعتبر مؤلف الكتاب (وجوه الإعجاز الموسيقي في القرآن) د. محي الدين رمضان أن من أبرز وجوه الإعجاز الموسيقي هي في أحكام التجويد منها ظاهرة المد في التلاوة وأثرها الموسيقي، الهمز وقيمة الصوتية في نسق الأصوات الأخرى، الإمالة وأثرها في تنويع الإيقاع والتنغيم، وآثار الإدغام في تنويع المسموع وإلى آخرها^١.

هذه الأحكام التي ينبغي لقارئ القرآن أن يراعيها هي في حقيقة الأمر أحد أسرار ذلك التوازن والانسجام، وأحد أسرار ذلك الإيقاع الذي يشد الأسماع إليه، لا تكاد تخلو آية من حكم ما بين غنة تارة أو مد أو إخفاء أو غير ذلك من الأحكام التي تفرض على السامع لونا معينا لا يعهد في الكلام الاعتيادي، وإذا ما علمنا أن قراءة القرآن لا تجوز بحال دون مراعاة لهذه الأحكام، أدركنا أن ذلك سر كامن في كتاب الله، هذا الذي يجعل النفس تنجذب إليه، حتى لو كان السامع له لا يفهم لغة القرآن، فحده يجذب لهذا الكلام المنعم، بل إن بعض الحوادث تشير إلى أن هذا الذي يسمع له من غير الذين يشهدون لغة القرآن يميزون بين لفظ القرآن وبين

^١ البغدادي، جلال الدين حنفي. ١٩٨٧م. قواعد التجويد والإلقاء الصوتي. العراق: لجنة إحياء التراث الإسلامي. د. ط. ص ٣٦٩.

^٢ رمضان، محي الدين. ١٩٨٢م. وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن. الأردن: دار الفرقان. ط ١.

غيره من بقية الكلام، كما قد أشير إليه في مواضع من الدراسة- ولا يمنع هذا كون المتأثر به كان بسبب قدسية ألفاظه^١.

والباحثة على يقين بأن مبحثاً كهذا يحتاج في بسطه وشرحه إلى رسالة مستقلة، وذلك تبعاً للجوانب الموسيقية في أحكام التجويد، فما من قاعدة ولا حكم إلا وفيه إيماءة إلى هذا الجانب^٢، يستوي في ذلك ما كان تابعاً لأحكام النون الساكنة والتنوين، أو ما كان تابعاً لأحكام الميم الساكنة، أو ما كان تابعاً إلى المدود بأنواعها، أو مخارج الحروف وصفاتها، والتفخيم والترقيق وغير ذلك من الأحكام التي يسهم كل حكم منها في جانب من الجوانب الموسيقية التي يحتوي عليها القرآن الكريم.

^١ الجيوسي، عبد الله محمد. ٢٠٠٦م. التعبير القرآني والدلالة الشسية. دمشق: دار الفوثاني للدراسات القرآنية. ط ١. ص ١٦٥.

^٢ Nelson, Kristina. 1985. The Art of Reciting the Qur'an First Edition. University of Texas Press

هذه الرسالة كانت حوالي ٢٣٩ ص باللغة الإنجليزية واستعرضت الجوانب النفسية لأحكام التلاوة وخاصة بعد صفحة ١٥٧ استعرضت الجوانب الموسيقية، يشار هنا إلى أن تلاوة القرآن الكريم لها أثر كبير في جلاء الصوت وتحسينه، والملاحظ أن أغلب من يطلق عليهم (الفناني) من العرب بدءوا حياتهم بتلاوة القرآن الكريم، فالإحصائيات تشير إلى أن أغلب الناجحين في هذا الميدان هم من قراء وحفظة القرآن الكريم في بداية حياتهم، ويعلمون ذلك بأن أحكام التجويد تعطي للقارئ خبرة ومرونة في الأداء الصوتي ووضوح التبرات والحروف، تذكر بعض الكتب أسماء كثيرة لمن كان لهم بروز في هذا الميدان، وهم مشهورون بتلاوة القرآن وحسن الصوت فيه في العصر الحديث، غالبيتهم من جمهورية مصر العربية من أمثال: الشيخ سلامة حجازي وأبو العلاء محمد والشيخ يوسف المنيلادي والشيخ سيد درويش والشيخ زكريا أحمد (شيخ الملحنين) ومحمد بن عبد الوهاب وأم كلثوم، علماً أنه ليس كل من ذكر هو من الفنانيين، ومن القراء المشهورين: محمد رفعت، الذي قيل فيه: (قيثارة السماء)، ومصطفى إسماعيل. للمزيد انظر: عبد الخالق، عطيات وناهد أحمد حافظ. ١٩٧٤م. من تربية الصوت وعلم التجويد. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. ط ١. ص ١٦٢-١٦٩. حيث ذكرت مجموعة من هؤلاء، وطرفاً من حياتهم، والذي يشير إلى حفظهم القرآن منذ الصغر ودراستهم في الكتاب.

فالتجويد وأحكامه في حقيقة الأمر قواعد موسيقية، ويشير بعض الذين تحدثوا عن هذا إلى أن قواعد التجويد هي قواعد الغناء العربي نفسها من الناحية الأدائية^١، غير أن المجودين كانوا أمناء على هذه القواعد بسبب قدسية النص والحرص على الالتزام بالتطبيق الأدائي، ولهذا فإن قواعد القراءة دقيقة والجهل بها خطير، وللنعم دور كبير في النفوس وأثر كبير في الواقع - كما تقدم بسطه - لهذا فإن تجويد القرآن لا يتم إلا وفق قواعد وأصوله السليمة، ((ولا يجوز الخروج به من أطره الأدائية إلى الحالة التي يحل فيها النصاب الأدائي، ويشيع فيها جو من الترفيه الذي لم يعد ولن يعد يوماً من المطالب الإقراضية المطلوبة))^٢. بعد هذا نخلص إلى أن ((قواعد التجويد هذه هي التي يكمن فيها هذا الأثر المتوازن والإيقاع الموسيقي الذي يشتمل عليه القرآن الكريم))^٣، ولا يخفى أن كل حكم من أحكام التجويد وقواعد ينطوي على هذه المعاني المتناسقة ويسهم في هذه الموسيقية فما من حكم إلا وينظم خيطاً في هذه الموسيقية القرآنية، إذ أحكامه تعد ينبوعاً من الموسيقى لا ينضب^٤.

^١ البغدادي. قواعد التجويد. ص ٣٩٤.

^٢ البغدادي. المرجع نفسه. ص ٣٩٤.

^٣ تحدث عن هذا كلون من ألوان الموسيقية القرآنية الأديب الكبير الرفاعي في كتابه: تاريخ آداب العرب. ج ٢. ص ٢٣٠-٢٣١. إعجاز القرآن، ص ٢٥٠-٢٤٩، منبها إلى ما تركه هذه الأحكام من أثر في النفوس، مشيراً إلى أن خصائصه الموسيقية وتساق حروفه على أصول طبيعية مضبوطة من بلاغة النغم بالهمس والجر والقلقلة والصغير والمد والغنة.

^٤ يقول دراز: ((إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوعاً يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيف حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيح الصوت به، وتهاوي النفس فيه آناً بعد آناً، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى، فيجد عندها راحته العظمى))، دراز، محمد عبد الله. النبأ العظيم. تحقيق: الدخايني. ص ١٣١. رمضان، محي الدين. ١٩٨٢م. وجود الإعجاز الموسيقي في القرآن. عمان: دار الفرقان. ط ١. من ص ٧٦ وحتى نهاية الكتاب. وانظر الباقوري، أحمد. ١٩٧٤م. فن التجويد هو موسيقى القرآن. الكويت: مجلة الوعي الإسلامي. العدد ٧٣. السنة الثالثة والسبعون. ص ٢٩-٣١.

الخلاصة:

من أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة من خلال ما سبق:

١. إن إعجاز القرآن لن ينتهي عند بحث معين ولن يقف عند فكر معين، بل هو مداد لا ينقطع إلى أن تقوم الساعة حتى لو كرر المسلم القراءة لأنه في كل مرة يستشعر معنى جديداً لم يتكشف له في قراءته السابقة، ومن ثم يزداد تأثره ويأخذ قارئ منه موضوعات جديدة وألواناً من المعارف في شتى المجالات.

٢. الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم يتجلى واضحاً في قوة الجذب الشديدة التي تحدثها آيات في النفوس عند تلاوته أو الاستماع لآياته مما يجعل القلوب تتأثر والعقول تخضع وهذا سر إعجازه ويعطي دليلاً قوياً على تأثيره في الناس.

٣. اختلف العلماء حول ماهية الإعجاز التأثيري للقرآن بين مؤيد ومعارض وكون أنه وجه مستقل بذاته أم أنه تابع لبعض الوجوه الأخرى، بل لم يتفقوا على عنوان محدد لهذا. وقد ترجح الباحثة على أنه مستقل بذاته من خلال الاستدلال بالأدلة الشرعية على ذلك.

٤. كان أول الناس تأثراً بهذا القرآن هو رسول الله ﷺ، ومن ثم الصحابة رضوان الله عليهم، ثم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وحتى الكافرين تأثروا بهذا القرآن فمنهم من تأثر بالقرآن فاستجاب ومنهم من أعرض وتولى نتيجة الكبر، والعناد، والجهل.

٥. الإعجاز التأثيري فيه مجال خصب للدعوة إلى الله تعالى، وخاصة في زماننا هذا وما يليه من أزمنة حيث يعج العالم كله بالعلم والتطور في الاكتشافات العلمية.

٦. الاستماع لتلاوة القرآن الكريم عامل مؤثر وأساس في دخول الناس قديماً وحديثاً في الإسلام وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة التوبة ٩: ٦).

٧. إن دور الحواس من السمع والبصر والقلب في إدراك التأثير أمر يؤكد القرآن ونبه عليه تنبيهاً عاماً

في مواضع كثيرة وهو يوضح العلاقة الوثيقة بين هذه الحواس وبين التأثير القرآني.

٨. المظاهر التأثيرية للقرآن على الناس نلمحها في شتى الأزمان والعصور، فهي لا تقتصر على

معاصري رسول الله ﷺ وأصحابه وإنما نراها عندما يترك القرآن آثاره على فئة مؤمنة، فتستقيم بها

على نهج، بينما تعجز قوى الكفر والشرك عن دفع هذه الآثار القرآنية المعجزة بالعقل والمنطق

والحجة والبيان، فتلجأ إلى الإيذاء البدني الذي يصل إلى حد الحو والإبادة.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

الفصل الثالث: العلاج بالقرآن الكريم وتأثيره والرقية به

المبحث الأول : تأثير الدين على الصحة النفسية (الطب الروحاني) في ضوء البحوث التجريبية في العالم.

المبحث الثاني : العلاج بالقرآن بين الجواز والمنع ومصادر الطب النبوي.

المبحث الثالث : كيفية استخدام العلاج بالقرآن الكريم وشروط من يقوم بالعلاج به.

المبحث الرابع : الرقية الشرعية: حكمها، وضوابطها، وكيفيةها والفرق بين الشعوذة والسحر.